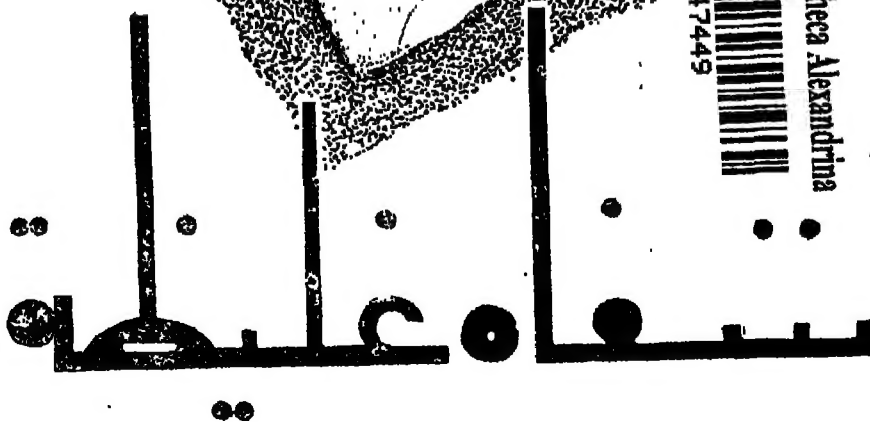


محمود محمود



الطبعة الثالثة

سبتمبر سنة ١٩٥٩

شَفَاهُ غِيْظَةً

من عادتي أن أتفادى من الذهاب إلى المصارف في
الأيام الأولى من الشهر... ولكن اتفقت لي أن قصدت إلى
«المصرف الوطني» في مطلع الشهر لأصرف صكاً بخمسة
جنيهات هي ما بقى لي على أحد عملائي من أتعاب قضية .
وكنت في جمع زاحر أدافع جهدي في سبيل الوصول إلى نافذة
الشكوك وقد أخذ مني الضيق كل ما أخذ . فلمحت وأنا
مدهوش مغیظ فتاة تشرق إلى النافذة بين صفوفنا غير
معنوية بأحد . وأنطلق لسانى بلفظة احتجاج ، قابلتها
الفتاة بإجابة تحدى خشنة ، فازددت سخطاً ، ولكن لم يجد
سخطى نفعاً .

وبينا كنت خارجاً من المصرف ، وقد قبضت قيمة
الصك ، صدمتني شخص صدمة أزعجتني ، فالتفت
فإذا بالفتاة عينها تسابقني نحو الباب ، فرمقتها بنظرة
تكره ، وهمت أن أصبح بها مهدداً متوعداً ، فعاجلتني بابتسامة
رفيقة وهي تردد :

ألف معذرة! ... لم أقصد البتة أن أسيء إليك ...
فظفرتُ إليها ولساني لا يزال ناقماً ثائراً ، فلم ندع لي فرصة
التكلم ، بل واصلت قولها :

كنت قليلة الذوقِ معك مرتين... ولكني أؤكد لك أنه
لم أفضل ذلك عن عمد... إنهم يرهقوننا بانتظار...
مُشير للأعصاب ، ولدينا أعمال لا تحتمل إضاعة الوقت ،...
كانت تتكلم وابتسامتها تزداد إشراقاً ونشارة ، فقلت :
لها وقد مرت على في بسمة عابرة :

هذا صحيح ... إنهم يرهقوننا بالإنتظار ... ولكن
لا تنسني يا آنسة أنا في أول الشهر ... فللمصرف عذري !
— أوافقك على أن للمصرف بعض السدور لا العذرة كلت...
على الرؤساء أن يدبروا الأمر ، وأن يبدلوا أقصى الجهد في
سبيل إراحة العملاء ... لقد أضاعوا على محاضرة كان لزاماً أن
أستمع إليها في الجامعة ! ...

— أ طالبة أنت ؟

— في كلية الآداب ...

— حسن جداً ...

ورأيتني أسير وإياها في اتجاه واحد من الطريق ...
كانت سمرًا على شيء من الملاحة ترتدى ثوباً متواضعاً لا يدلُّ

مظهره على اليسر ، وإن احتفظ بظل من الأناقة والذوق
 السليم ... لا يميزها عن مثيلاتها من يصبأ بحسن عابر الطريق
 ويماسين إلا سمة خاصة : شفتاها ... أجل شفتاها ،
 بيت القصيد فيها ... كاتتا شفتين غليظتين لا أراهما
 عنطقتين لحظة بل منفرجتين أبداً ، تسمجان لحظاً أبيض من
 الأمان أن يكشف عن تألقه وتناسقه ... وإنك إذ تنظر
 إلى الشفة العليا ، منها تلحظ على الفور كأنها تحاول دائماً
 أن تنأى بنفسها عن رفيقتها في إباء وترفع ، ولقد تركز هذا
 الترفع والإباء في تنوء يتوسطها ، تنوء يمايل من وجوه
 شتى حاملة الشدي يمتد بك بتكوينه الفسنى ، ويرغمك على
 أن تدمن النظر إليه ...

وكنا قد قاربنا د شارع فؤاد الأول ، عن كذب من
 مشرب د الأمريكين ، فسمعتها تقول :
 أنزع مع ركوب الترام من هنا ؟
 — بل أقصد إلى د الأمريكين ، لاحتساء قدح من الشاي
 قبل الذهاب إلى المحكمة ...
 — اتفاق عجيب ... لى زميلة ستوافيني الآن فى المشرب
 كى ترافقنى إلى الجامعة ...
 — إذن طريقنا واحد ...

— ٦ —

فقلت وقد خطرت على حياها ابتسامة وضاحية :
يلوح لي ذلك ! ...

وأردنا اجتياز الطريق ، فاعتزضنا سبيل من العربات
والناس يزحم بعضها بعضاً ، فددت لها يدي ، فأمسكت بها في
رفق ، وعبّرنا « شارع قواد » من جانب إلى جانب .

وقالت لي ونحن نصعد إلى الطبقة العليا من المشرب :
أعلى موعد أنت في المحكمة ؟

— مع أحد العملاء ! ...

— أنت محام ... ؟

— يلوح لي ذلك !

فأرسلت ضحكة خفيفة تعالت على أثرها شفتيها العليا في
اختلاجة رشيقة على حين أخذ التواء الذي يتوسط هذه الشفة
يتقلص وينبسط في جاذبية أخاذة ...

وأخرجت محفظتي وتناولت منها بطاقة قدّمتها إليها
قائلاً :

قد تحتاجين إلى محام ... لا تدّر الله ! ...

فتناولت البطاقة باسمي ، ونظارت فيها تقرأ اسمي ، وتقول :

تشرّفنا يا أستاذ ... سمعت اسمك قبل اليوم ... ما أسعدني

بهذا التعارف !

— ٧ —

— الشرف والإسعادُ لي يا آنسةُ .
وكنا قد بلغنا الطبقةَ العليا ، فدارت الفتاةُ بعينها في المكان
متفحصةً ، ثم همهمت :
لم تحضر زميلتي بعدُ ...
ولم يكن في المكانِ إلا عددٌ قليلٌ منتثرٌ هنا وهناك ...
فقلتُ :

وهل تنتظرينها ؟ ...
— يحسنُ بي أن أفعلَ ...
— أيسودك أن يكونَ انتظارك لها على مائدتي ؟
فابتسمتُ ، ولكن ما أسرعَ أن زايلتُ ابتسامتها وهي تقولُ :
أخشى عيونَ الفضوليين !
— وهل تُلقينَ بالآ لاهل الفضول ؟
— كلاً ... ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— أليس من الزكي أن تجالسَ فتاةً رجلاً لم يَمُضْ على
معرفتها به غيرُ لحظات ؟
— هذا موضوعٌ نستطيع أن نجعله مدارَ نقاشنا على مائدةِ
الشاي ! ...
— ولكن ياسيدي ...

— ٨ —

- تكلمى ...
- إنها المرة الأولى التى أجلسُ فيها إلى رجل فى مُتَدَى
- حام ...
- حتى إذا كان من أقربائك ؟
- وهل أنت من أقربائى ؟
- هى ذلك ا ...
- لم هذا التشبهُ ؟
- محام يرغبُ فى كسبِ قضيته ...
- وهل تحولتِ المسألة قضية ؟
- قضية صداقة ، أرغبُ فى توطيدها ...
- ماذا تقول زميلتى إذا رأتنى معك ؟
- ألا ترينَ عيونَ الناس قد بدأت ترمقنا ؟
- هذا ما كنتُ أتوقعهُ ...
- ودنونا من أقربِ مائدة وجاسنا إليها . وسرعانَ ما أقبل
- علينا غلامُ المشرب ، فنظرتُ إليها وقلتُ :
- بم تأمرين ؟
- بقدر من الشاى ...
- قلتُ للغلام :
- قدحين ...

— ٩ —

وأخذت الفتاة تطوفُ بنظرٍ حاصمته فيما حولها وأنا أراعيها...

وسمعتها تهمهم :

ما أسمعته ا...

ثم واجهتني بقولها :

إنه لم يحسّوّل نظره عنى لحظة منذ قدّمنا...

— من ؟

— هذا الرّفق' ... ا

قالت ذلك وأشارت بعينها إلى رجلٍ يدين له وجسده كالرغيف المُنقَّب التّوهج ، ووصلت جملتها السابقة بقولها :

إنه من حمقى الأثرياء الذين يتّالون الدنيا طوعَ يمينهم ...

— أتعرفينه ؟

— ومن أين لي أن أعرفه ؟

— كيف علمتِ إذن أنه من حمقى الأثرياء الذين ...

فقاطعتنى في طجة حازمة ، وقد زوت ما بين حاجبيها :

إن وجهه بذلك ينطق ا

— أنتِ دقيقةُ الملاحظة ...

وأقبلَ غلامُ المشربِ بالشاي فوضعه أمانا ، فلأت لها

قدحها ومَلأتُ لى قدحى ، ومضينا نخرجُ الشاي على مَهَل ،

وأخرجتُ علبةَ لفافتي وقلت :

أَسْمَحِينَ ؟

— دَخْنِ كَمَا تَشَاءُ ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ ...

— وَأَنْتِ ؟

لَخَدَجْتَنِي بِنَظَرَةٍ عَنَابٍ قَائِلَةً :

سَيِّدِي ! ...

— لَا تَوَاخِذِي ...

وَتَنَاولْتُ لِفَاقَةً وَأَخَذْتُ أَدْخَنَهَا لَحْظَةً فِي صَمْتٍ . وَمرَّ
أَمَامَنَا الرَّجُلُ الْبَدِينُ ذُو الْوَجْهِ الْمُقْبَبِ يَدْرُجُ فِي جُسْهِدِهِ
وَمَشَقَّةٌ . فَأَنَّى عَلَيْنَا نَظْرَةً سَانِحَةً وَتَابِعَ سِيرَهُ ... وَسَمِعْتُ
الْفَتَاةَ تَغْمَغُمُ :

يَا لِلْوَقْعِ ! ...

— حَقًّا إِنَّهُ لَسَمُوحٌ ...

— أَمَا لَاحَظْتَ كَيْفَ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ؟ ... لَا أَحْتَمِلُ رُؤْيَا هَذَا

الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ ! ... إِنَّهُمْ يَمَثُلُونَ أَمَامِي ذَلِكَ النَّفَرَةَ الْبَائِدَةَ

مِنْ أَمْرٍ الْإِطَاعِ ... لَا تَوَاخِذِي ! ...

— عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَوَاخِذُكِ ؟

— قَدْ يَكُونُ فِي سَحْمَتِي عَلَى هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الرِّجَالِ ...

— وَهَلْ تَرَيْنَنِي مِنْ هَذَا الضَّرْبِ ؟

فَضَحَكَتْ فِي خَفَّةٍ وَقَالَتْ :

— ١١ —

لا أقصد ذلك. ولكن يجب أن أصرّح لك بأنى أمقت هؤلاء الأثرياء
المتقاعدين ذوي رءوس الأموال الذين يمتصّون دم الشعب...
— كلامٌ وجيه ...

— إذن أنت من أنصار الاشتراكية ...

— وهل قلت ذلك ؟

— أىّ مذهب اجتماعي تعتقّه إذن ؟

— لم ألقِ على نفسى هذا السؤال حتى الساعة ! ...

— أنت متعب ... !

— أشكرك لك ! ... !

ونظر كلٌّ منا إلى الآخر ، ثم استرسلنا في قهقهة عالية
وجددّنى أثناءها أرنو إلى شفتيها الغليظتين ، وهما تلتطمان
وتتدافعان ، وأرقب في شعف ذلك التواء الجبل ، حتى ودّدتُ
لو طالت ضحكتهما وقتاً ...

وسمعتها تقول :

اعترف بأنك غير صريح ... !

— قد يكون ذلك ...

— أما أنا فعلى العكس صريحة جداً ...

— هذا حقّ ... إذ أعلنت لي في وضح النهار أنك تميلين

إلى النظام الاشتراكي !

— ١٢ —

- أَلستُ على صوابٍ في هذا الميل ؟... ألا توافقني على أن
التوزيع الاقتصادي في المجتمع الراهن غير عادل ؟
— أوافقك ..
— بلسانك وحده ؟
— بل بقلبي !
— إذن لقد استطعتُ أن أجتذبك إلى صفِّي !
قللتُ في لحظة هينة :
أَوَ كنتَ تظنَّ أنكَ غيرُ قادرة على اجتدائي ؟ ...
فأسبكتُ جفنيها ، وهي تقول في صوت لين المكاسر :
يبدو لي أنك سهلُ الانقياد سريعُ التأثر ! ...
قللتُ لها وعيناي لا تفارقان شفتيها :
لا في كلِّ الأحيان !
وكانت يدها على المائدة تعبثُ بملعقة الشاي ، فددتُ
يدي وأطبقتُ كفي على راحتيها ، فاجتذبت يدها في غير
عنف ، وألقتُ بنظرة خاطفة على ساعة الحائط ، ثم نهضتُ
وهي تقول :
لقد تأخرتُ زميلتي عن الموعد ، وقد أطلتُ في انتظارى
إياها ... يجبُ أن أغادر المكان .
— أَيْكونُ قد بدرَ مني شيءٌ ساءك ؟ !

— أنا شاكرةٌ على كلِّ حالٍ حُسْنِ ضيافتك ...

— أنا آسفٌ إذا كنتُ ...

— لا يُساورك من ذلك شيءٌ ...

ومدَّتْ إلى يدها وهي تبسمُ ، وقالت :

إلى اللقاء ياسيدى ...

— إلى اللقاء يا آنسة ...

واتجهتْ نحو السَّلم ، وانحدرتْ عليه مُسرعةً ، وعُدَّتْ
إلى مقعدى ، وأخذت الشَّفتان الغليظتان ذَوَاتا التَّشْوِيرِ
اللطيف تراءيانِ لى فى كل لحظة ... ولا أدرى كم مضى على
من الوقت وأنا فى جِلسَتى هذه . ولكنَّ ظُهور غلام
المشربِ أُمَامى أيقظنى من حُلُمى . وعلمتُ أنه جاء ليقبضَ
ثمنَ الشاى ، فدفعْتُ يَدى فى جيبِ سُتْرِقى ، ولشدَّ ما كان
عَجَبى إذ لم أجِدْ مَحْفَظَةَ نقودى فى مكانها ، وأسْرعتُ أبْحَثُ
عنها فى جيوبى الآخر وأُمنعُ فى البَحْثِ ، ولكن على غيرِ
طائل ... أين اخفَستُ ؟ ... ومن أخَذَها ؟ ... ولحِثْتُ فى خاطرى
صورةُ صاحبةِ الشِّفاء الغليظة ... أممكِنُ هذا ؟ ...
وعدتُ أبْحَثُ ثانياً ... لم يسلُبْنى المَحْفَظَةُ أحدٌ فى
الشارع ... لنى على يقينٍ من أنها كانت فى جِيبى حينما دخلتُ مع
الفتاة فى هذا المكان ... ونظرتُ إلى غلامِ المشربِ ، وقلتُ

مردداً في حدة :

لقد أخرجتُ المحفظةَ أمامها ... أعطيْتُها بطلاقي ...
هذا مؤكد ...

فنظر إلى في حيرة وقال مجمعا :
ولكن ... ثمنُ الشئِ يا سيدى !
— أنظنُّ أني محتالٌ أيها الغنى ؟
— العفو ... العفو ... إنما ...

ودسستُ يدي على الفور في جيبِ صيدارى ، فألقيت
معى لحُسنِ الحظ من النقودِ الصغيرة ما يَبْقَى بما هو
مطلوبٌ ، فألقيته إليه وخرجتُ أعود وأنا أكرُّرُ :
المحتالة ... الماكرة ... ساذجٌ كُها ... وسأسألُها إلى
رجال الشرطاة ...

وارتدتُ المنطقة حول الأمريكين ، أنصفحُ السابلة وأنفقدها
بينهم وقتاً غيرَ قصير ... ولكن بلا جدوى !
واقصدتُ في النهاية إلى مكانٍ عملي وأنا محققٌ نائز ...

* * *

وفي اليوم التالي بينما كنتُ في مكتبي أقلبُ بعضَ المجلاتِ
الأوربية المصورة استوقفتُ نظري صفحةٌ مكتوبٌ في رأسِها :
« مسابقةُ الشفاه » ، تحوى مجموعةَ صورٍ مختلفةٍ لشفاه بعضِ

الغائيات الأمر يكيات من كواكب «السينما»، وقد وضعت جوائز
لمن يكشف عن صواحب هاته الشفاه . ووقع بصرى على قدم
غليظ منفرج الشفتين يتوسط العليا منهما نتوء ملحوظ ...
فضيت أرنو إليه طويلا . ولم ألبث أن انتزعت الصفحة
من المجلة وقصصت منها الجانب الذى يشتمل على صورة ذلك
القسم ... وقذفت بما بقى من الورقة فى سلة المهملات ،
وتناولت معجم «أبوت» ، الأثرى الغارق دائما فى
سباته العميق على مكتبى ، وأودعت حنايا صحافه تلك
القصة ...

وكثيرا ما ألقيتنى بعد ذلك أثناء درسى لقضية من قضاياى
أخذ المعجم شارد الذهن ، وأمضى عجلا قلب صحافه ،
وسرعان ما أجد أمامى صورة «الشفاه الغليظة» ، تحدق فى
فأحدق فيها . ومن ثم يفيض على نفسى إحساس بهيج
يفضى بى إلى أحلام عذاب !

وترادفت الأيام ... وكنت يوما فى «قسم البغالة» ، أجادب
«المأمور» ، الحديث فى قضية من القضايا ، فتعالت بغتة
أصوات خارج الحجرة ، وفى لحظة اقتحم علينا المكان رجل
جاوز سن الشباب يبدو من هيئته أنه من ذوى المعاش ، وهو

يجذب فتاة من يدها، وينعتها بأرذل النعوت ، رامياً لإياها بالسُرقة والاحتيال ، على حين كانت الفتاة تُسكّر في تعنتٍ ومكابرة ، وتحاولُ أن تخلص نفسها منه .

وبرزت أمامي في الحال « الشفاهُ الغليظة » ، ذاتُ التواء الملمحوظ ، وعرفتني على التّوّ ، وسرعان ما وجدتها تتخاذلت فأمسكت عن الكلام ، وقد طغى على محيّاها امتقاع ... وكان الرجل ما برح قابضاً على يدها ، يسوقها في عنفٍ إلى مكتب المأمور ، ولسانه ينهمرُ بسيل من سبابه البذيء . فتقدمت منه وأخليت يدها من يديه ، وقلتُ له :

تذكّر يا سيدي أنك في دار الشرطة ... شأنُ الفتاة الآن موكلٌ إلى المأمور .

فنظرَ إلى الرجلُ نظرةً عاتبةً وقال في تأناة :
لقد سرقتُ حافظة نقودي حينما كنتُ في القهوة منذ أيام ، وقد اختفت ولم أعر عليها في ذلك الوقت ، واليومَ وجدتها اتفاقاً في الطريق ، فقَبضتُ عليها بمعاونة رجال الشرطة ... يجبُ أن تعيدَ إليّ ما سرقتَه ... إنها محتالة ... ماكرة ... لصّة ...

فلم تعترض على كلامه الفتاة ، بل ظلت ممسكةً ، وهي تنظرُ أمامها نظراً ثابتاً .

فقلت للرجل :

ماذا أخذت منك ؟

— ثلاثمائة وثلاثين قرشاً ... غير ثمن المحفظة !

فلنت على دالمأور ، وأسرت إليه :

إني أعرف هذه الفتاة ، وأمرها يهمني ، فإذا قبلت ضمانتي ، وأطلقت سراحها كنت لك شاكراً ...

واللحمت عليه ، وكان من يتقون بي ، فقبل ... فاقبذت على الفور بالرجل مكاناً قصياً ، ونقدته ما طلب ، وخرجت أخذاً بيد الفتاة .

وما كدنا نترك القسم ، حتى رأيتها تُكرِّكُ في الضحك على حين بغتة ، فنظرتُ إليها مغضناً الجبين ، وقلت :

حقاً إنه موقفٌ يشيرُ الضحك !

فنظرتُ إلى بؤسٍ خَرَّ عينيها وقالت :

أتريدني أن أبكي ؟

— كان الأجدرُ بكِ على الأقل أن تصمتي !

— ولم ؟

— ألا تستشعرين الخجل ؟

— أتبغي أن تلقى على محاضرة في علم الأخلاق ؟

— وهل تجدي معك هذه المحاضرة ؟ ...

— ١٨ —

فأطلقت قهقهةً ، وقالت :

ليس لدى من الوقت ما يسمَحُ لي بسماع أمثال هذه
المحاضرات !

فضغطتُ يَدَهَا في عنف ، وقلتُ :

كفّني عن هذرك ... وإلا ...

فصوّبتُ إلى نظرة حادة وقالت :

— وإلا ماذا ؟

— أنظنين أنني غير قادرٍ على تأديبك ؟

— ومن تكونُ أنتَ حتى تبيع نفسك هذه السُلطة ؟

— أأيحبا نفسي بمحض إرادتي !

فتضاحكت معايشةً وقالت :

ولكنني لا أأيحبا لك !

فازددتُ في ضغطٍ يدها وقلتُ :

كفّني عن هذا الهذر ... لن تجدي من ورائه إلا
أسوأ العواقب ...

فصاحت وهي تشدُّ يَدَهَا :

ليس لك شأنٌ بي ... انزُك يدي ... أسمع ؟ !

فلم أجنَ باحتجاجها ، بل تماليتُ في ضغطٍ يدها ، فضعفتُ
صوتها واختلج ، والتمعتُ عيناها بريق الدموع ... وسمعتها تنغمم :

— ١٩ —

رجلٌ مُقاسٍ بلا قلبٍ ! ...
وانطبعتْ على شففتيها مظاهرُ الذلِّ والإِنكسارِ ، فأكسبتَها
منظراً خُلاباً ...
ووجدتُني أخففتُ الضغطَ عن يدها ، وواصلتُ كلامها
قائلةً :

ماذا تريد مني ؟ ... قل ... ماذا تريد ؟ ...
فأجبتُ :
أريد أن أقومَ من اعوجاجِك ، وأن أصلحَ من نفسِكِ !
— ولم كلُّ هذا يا حضرة ؟
فقلبي متباطئاً وجهينى لا تفارقان شففتيها :
إنه عملٌ من أعمالِ الخيرِ أقدمُهُ إلى الإنسانية !
— الإنسانية ؟ .. وهل تعنيك الإنسانية إلى هذا القدرِ ؟
— يلوحُ لى ذلك ... !
— عجيبٌ أمرُك ... أتعلمُ كم مالاً أضعتُ حتى الساعةِ
في سبيلِ هذه الإنسانية ؟
— أعلمُ !
— وقد تفقدتُ أكثرَ من ذلك في المستقبلِ !
— محتملٌ هذا ...
— حبّاً في الإنسانية ؟

- ٢٠ -

— أَرغبُ في الأخذِ بناصرِ مخلوقِ تادسٍ وانتشالِهِ من
هاوية ترَدَى فيها... —

فحدقتُ في وقتاً صامتة ، ثم قالتُ :

أتظنُّ أني لصة ؟

فابتسمتُ قائلاً :

— معاذ الله !

— ظنٌّ ما نظنُّ ... لماذا تتمتعون أتم بالمالِ ، وفقيرة

مثل لا تلقى ما يسد الحاجة ؟

— عدنا إلى الاشتراكية ... —

— أنا لم أسرق .. إني أناكُ حقاً مشروعا ... إني أعيدُ إلى

طبقتنا المهيضة الجناح بعض ما سلبتُموها من رزقِ !

ومضتُ في حديثها محتاجة بالغة السطوة ، وكنا نسيرُ جنباً إلى

جنب في خطأً وئيدة ، فتركشها تفرغُ ما في جعبتها ، حتى إذا

بلغتِ النهاية قلتُ لها :

إنك لقويةُ الحجة !

— أتَهزأ بي ؟

— كلا ... —

— ما زلتَ تحسبني لصة ؟

— لا أريدُ أن أحسبك كذلك !

— ٢١ —

— لا تريد ١٢ ...

ووقفتُ قبالي متفتحة ثم أردفتُ قائلة:

ولماذا لا تريدُ؟

— هكذا ...

— ولكنني أؤكدُ لك أنني لست لصة، إني لم ألدِمُ على

ما أقدمتُ عليه إلا لأسباب قاهرة!

وأمسكتُ برهةً ... ثم استأنفتُ حديثها:

أسبابٌ مشروعة طبعاً ...!

— هذا محتمل ...

— لي أبٌ مصابٌ بمرض لا يُرجى شفاؤه، وأربعةٌ من

الإخوة والأخوات كلهم أطفال، وأنا وحدي أعولهم ... إن

عملي المضني في حياكة الأتواب لا يدرُّ عليّ إلا النزر الذي

لا يغني!

— ومن أجل هذا أرغبُ في إصلاح أمرِك!

— أليكَ عملٌ أستطيعُ أن أقوم به؟

— آملُ أن أجدها هذا العمل ...

— مانعُه؟

— لا أستطيعُ أن أحدى هذه الآن، ولكن أَعِدُّكَ بأن أبذلَ

ما في وسعي لأهلي. لكِ عملاً نافعاً ...

— ٢٢ —

فانطلقت تقلبُ في وجهي عينيها المتسائلتين ، ثم قالت مهمة:
أنتقُ بي ؟

— أرغبُ في ذلك !

فابتسمت وقالت :

سأزورك في المكتب ...

— إني منتظرُك ... هاك عنواني ...

ودسست يدي في جيبى لأخرجَ المحفظةَ ، ولكنها بادرته
بقولها والابتسامة ما زالت تتموج على عيهاها :
إني عتظة ببطاقتك التي أعطيتها في الأمريكين .

— حقاً ؟

فكانت في صوتٍ خافتٍ ناعم النبرات ، وهي تعبتُ
بأصابعها :

إنها بطاقة ثمينة ... لا أفرطُ فيها ... أتريدُ أن تراها ؟

— إني أصدقك ...

— شكراً لك ... والآن يجبُ أن أمضي إلى البيت ... أنا
أسفةٌ إذسيبتُ لك متاعبَ كنت في غنى عنها ... كل ما فقدته
من مال لأجلى سأعيده إليك حتماً ... كن على ثقة بأنني لستُ
من الخبثِ وسوءِ الطويّةِ بالدرجة التي يتوهمها الناسُ في ...
ستجدُ على الأيامِ مصداق ذلك !

— ما أشدَّ رغبتي في تحقيق هذا...
— سأزورك غداً في المكتب... إذا لم تجد لديك من
ذلك مانعاً...

— في أى وقت؟
— قبيل الظهر...
— سأنتظرك...
وهدت إلى يدها فاحتوت كفي راحتها. ومكنت قبالتها وقتاً
صامتاً أنملي مفاتيحها، والخبطة تشيع في نفسي، ثم همستُ:
أقبلين أن تناول الغداء معاً؟
— كما تريد...
— أشكرُ لك...
— إلى الملتقى...
— أنا في انتظارك...

وتركتني وهي تبسم في عذوبة... وطالب لي أن أعود إلى
منزلي مترجلاً، وسرت في خطوات هينة. وكنتُ أثناء
الطريق أدخنُ اللفائفَ واحدة إثر أخرى وأنا هَيَّيَانُ
أفكر فيها مرّين الساعة مع ذات الشفاه... وساءلت نفسي
مرات:

هل كنتُ مصيباً في موقفي منها؟ ألم يكن الأجدرُ بي

أن أتركها في القسم ، بين يدي الشرطه وأن أعزز الشهمة
ضدّها عقاباً لها وردّها لميلاتها ؟ ...

وهنا طَفِقتُ أنا نفس نفسي في فلسفة العقوبة ، وما هي أقومُ
السُّبل إلى إصلاح المجرم على ضوء المباحث النفسية الجديدة
وهذه آية مبادئ الإنسانية الرحمة . وانتهيتُ من هذا النقاش
إلى نتيجة أطمأنتتُ إليها ، وهي أن ينبغي مع هذه الفتاة البائسة
خير ما يفعله امرؤٌ كبير القلب ، إنساني المزج ، وأتى جديرٌ
بأن ألزمَ هذا المبدأ في حياتي أبداً ...

دخلتُ منزلي وتناولتُ عشاء خفيفاً . ثم قصدتُ إلى مكتبي
لأدرُسَ بعض القضايا فلم أجِدْ ميلاً إلى العمل ، بل أحسستُ
تراخياً ورغبة في التَّدُّر على المقعدِ الفسيح ، ففعلتُ ...
وامتدتُ يدي إلى مُعْجَم « أبوت » وأخرجتُ صورة
« الشفاء الغليظة » ومضيتُ أناملُها مَلِيحاً ... إن لها أبا مصاباً
بمرض لا يرجى له شفاء وإخوة وأخوات أطفالاً ... إنها
لنَظْفِضِي الليلَ منكبة على الحائكة ... وماذا تَرَبَّحُ من هذه
الحائكة ؟ كثيراً ما تدنُّعُ الفاقةُ بالمرء إلى مهاوى الجريمة ، ومن
ثمَّ أيَّه القانون مطالباً بالعقاب ... حقاً إن في الأوضاع
الاجتماعية لمظالم فادحة يجب القضاء عليها ... !

وفي صباح اليوم التالي نهضتُ من فراشي ، وقد اعتزمت

أن أتخلفَ عن المحكِّمة ... ألا يَحِقُّ لى أن أمتنَحَ نفسى إجازةَ
يَوْمٍ واحدٍ ؟ أفَحَشَمَ على أن أستقبلَ كلَّ نهارٍ تلكَ الوجوهَ
السَّمِجَةَ ؟ وأن أتلقَّى هذه الابتساماتِ السَّخِيفَةَ التى تَحْمِلُ
طابَعَ الرِّياء ... ؟

وطلبتُ زَمِيلَ فى «التليفون»، وأفهمته أنى منحرفُ المزاجِ ،
فعليه أن يَحْمِلَ محلىَّ فى المحكِّمة ... وأوصيتُ الطاهى أن يَهْتَبِىَّ
لى غَداءَ طَيِّبًا ، وخرجتُ إلى السوقِ فَأَتَيْتُ بِالْوَانِ مَتَازَةً من
المُشَهَّبَاتِ والحلوى ...

مَكَّنْتُ أَنْتَظِرُ قَدُومَهَا ؛ وطال انتظارى ، فقلقتُ
وساورتْنى ظنونٌ شتى .

وطال انتظارى أيضا . وألحَّ الطاهى فى سؤاله :

متى يُوذَنُ لى بِتَقْدِيمِ الطَّعامِ ؟

وحلَّت الساعةُ الثَّلاثَةُ ، ولم يَظْهَرْ لَدَاتِ الشِّفَاءِ

الغليظةِ أثرٌ ... !

* * *

وتعاقبت الأيام . وبينما كنتُ فى مكنتى وقتَ الأصيلِ مع
بعضِ عملائى ، منصرفينَ إلى دَرَسِ قَضِيَّةٍ مَهْمَةٍ ، إذْ دَقَّ
«التليفونُ» ، وكان المتكلمُ : «مأمورُ قسمِ البغالةِ» ، فأخبرنى
بأن الفتاةَ التى ضَمِنَتْهَا ضَبَّطَتْ متلبسةً بالسَّرَقَةِ ، فهممتُ

أَنْ أَصِيحَ بِهِ أَنْ أَحْبِسُوهَا ، فَقَدْ نَقَضْتُ مِنْهَا يَدِي ،
وَلَكِنْ وَجَدْتُ عَلَى الْفَوْرِ الْحُ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَبْعَثَ إِلَيَّ بِهَا عَلَى
عَجَلٍ ، وَعَلَى إِصْلَاحِ الْأَمْرِ ... فَلَمْ يَقْبَلْ ، فَرَجَوْتُهُ مُسْتَعْظِماً
أَنْ يَفْعَلَ ، فَهِيَ فَتَاةٌ مُرِيضَةٌ فِي طَبْعِهَا شَذُودٌ ، يَعَالِجُهَا طَيْبٌ فِي
الْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ ، وَلِإِنَّمَا مِنْ أَسْرَةٍ كَرِيمَةٍ ، وَلَا يَبْهَمُ مَكَانَةَ مَلْحُوظَةٍ
فِي الْهَيْئَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَمِنْ وَاجِبِنَا أَنْ نَصَوِّنَهُ عَمَّا يَشِينُهُ ...
وَأَطْلَعْتُ فِي حَدِيثِي ، فَأَكَّدْتُ لَهُ أَنَّهَا سَبَائِعُ فِي رِقَابَتِهَا وَمَنْعَرِ
اتِّصَالِهَا بِالنَّاسِ ، وَأَفَضْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَبْلَ ...

وَالْتَقْتُ إِلَى عَمَلَاتِي مُتَذَرِّعاً عَنْ مُوَاصَلَةِ الْعَمَلِ ، فَانْصَرَفُوا
مُرْغَمِينَ مُتَذَمَّرِينَ . وَانْطَلَقْتُ أَجُولُ فِي الْغُرَّةِ بِحُطْطَا
مُضْطَرِبَةٍ ، وَأَنَا أَجْهَمُ :
سَتَرِي ... سَتَرِي ...

وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ مَا أَفْعَلُ مَعَهَا . كَانَ رَأْسِي مَشْحُونًا
بِمُخْتَلَفِ الصُّوَرِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُتَشَابِكَةِ ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَلَيَّسَ بِهَا
أَوْ أَمِيزَ بَيْنَهَا وَعَجِبْتُ مِنْ أَمْرِي : كَيْفَ رَضِيتُ أَنْ أَصُوغَ
لِلْأُمُورِ هَذِهِ الْأَكَاذِيبَ الْعَجِيبَةَ ؟ وَكَيْفَ أَسْعَفْتَنِي بِدَيْهَتِي
عَلَى اخْتِرَاعِهَا بِمِثْلِ هَذَا الْيَسْرِ ! ؟

وَوَظَلَّتْ عَلَى حَالِي تِلْكَ حَتَّى قُضِيَ عَ الْبَابُ فَوُثِّبْتُ إِلَيْهِ
أَفْتَحُهُ ، وَرَأَيْتُهَا أَمَامِي خَلْفَهَا شَرْطِي ، وَسِرْعَانِ مَا حَصَرْتُهَا

— ٢٧ —

وجذبْتُها من ذِراعِها ا

وسمعتها تقول :

لماذا أنوأي هنا ؟

فربتُها بنظرة محتدة ، وقلتُ :

يا لك من سيئة الطبع خبيثة ا

— أراك نائراً ؛ لآتني لم أذكر كما وعدتُك ...

— أو انتظرتين أني صدقتُك ؟

— صدقتني ، وانتظرت مقدمي بفارغ صبر ...

— أنا انتظرتُك ؟ ... أنا ؟ ... هل بلغت بي العباوة أن أهم

بشخص حقيرٍ مثلك ا ؟

-- أجل ، أنت مهمٌ بهذا الشخصِ الحقيرِ : مهمٌ به أشد

الاهتمام ... ا

— أخرسني ...

— وأقد تعمدتُ ألا أحضر ؛ لأدفعك إلى انتظارى ...

— يا لك وقاحة ا

-- أما سببُ اهتمامك بي فأمرٌ لا يخفى عليك ... إنك

تهوأي .. أجل تهوأي ا ...

فصحت وقد أقبلتُ عليها متمسراً :

أنا أهواك ؟ ... أنا ... وهل فيك شيءٌ يُحب ؟

-- أنتَ مُدَلَّةٌ بى ... ولكنى لن أنيلك مُسَخَاك ...
حتى القبلَةُ الصغيرةُ سَأمنها عنك !
أنتَ أعجز من أن تمنعنى عنى شيئاً ... ولكنى زاهدٌ فيك
لحقارتك ... ما أشد افتقارك إلى ما يجتذب الرجل ! ..
-- إنك تذوب شوقاً إلى لثم شفاهى ! ...
-- شفاهُك ؟ ... ها ... ها ... شفاهُك الغليظة المتورمة
المُدلاةُ كشفاهِ أقبحِ الزُّنوج ... ؟
-- لن أنيلك شرفَ أنثى أبداً . ستظلُّ محروماً إياها
مهما يستعزُّ لبيبٌ غرامك ، وتتأججُ نارُ شوقك !
-- غرامى ؟ ... شوقى ؟ ... سأريك كيف أنا مفرِّمُ بك
مشوقٍ إليك ... سأريك !
واختطفْتُ خيْزُرانةً كانت ملقاةً على أحسَدِ المقاعد ،
وأمسكتُ ذاتَ الشفاهِ ، وانهلتُ عليها ضرباً ، ورأيتُها تحاولُ
المقاومةَ باديةً بدو ، ولكنها وجدتُ منى مؤذناً عنيفاً عنيداً
صعبَ المراسِ ، فاكثفتُ بأن تحمى جسمها من لَسعِ العصا
المرنة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ... ثم انطلقتُ تستعطفُننى
وتسترخُننى ، فلم أستجب لها ، بل ظلمتُ جداً فى الضربِ فى
مهارةٍ وتفنُّنٍ حتى أدركنى التعبُ ، فتركْتُها ... وجلستُ على
المتسكِّا أمسكتُ وجهى وأغمغم :

لعلك بعد هذا تقلعين عن غيبك وتشوين إلى رُشدك ...
والفيسُها ترحفُ إلى ركنٍ من أركانِ الغرفةِ تجمعتُ فيه
وراحت تنشيجُ.

وقتُ إلى مكتبي ، ومضيتُ أعبثُ بأقلامي صامتاً ، وأنا
أنظرُ إليها من طرفٍ خفي ... ثم قلتُ كأنى أحدثُ نفسي :
ستشكرين لي هذا الصنيعَ ... إنه درسٌ نافعٌ لك في الحياة !
فلم تُجيبني ، بل جعلتُ تنشيجُ نشيجَ طفلٍ ذليلٍ مبتئس ...
ولبثنا وقتاً على هذا الحالِ : هي في ركنها تولولُ ، وأنا جالس
إلى مكتبي أعبثُ بأقلامي ، وأخالسُها النظرَ الفينة بعد الفينة ...
وهملتُ أخيراً أن أذهبَ إليها لأعرضها ، فوجدتها ترفع
رأسها وتهمم بهذه الكلمات :

لم أكن أستحقُ منك أن تعاملني بهذه القساوة ...
— بل تستحقين ...

ومضتُ تمسحُ وجهها وتلتصق ما تشعثُ من شعرها ،
وهي تقول :

لوعلمتُ أيةَ عاطفةٍ طيبةٍ أكنها لك لما فعلتُ معي
ما فعلتُ !

فتضاحكتُ قائلاً :

أيةَ عاطفةٍ ؟

— ٣٠ —

— لا تزد من ألى هذه السخرية !
ونهضت تقصد مكاني قائلة :
أقسم لك إنى كنت معزومة زيارتك وفق الموعد الذى
حدر بناه ...

— أعودين إلى هذرك ؟
أقسم لك إنى صادقة فى قولى هذا ... لقد كنت حاضرة إليك
لولا وفاة أحد أقاربى ...

ودنت منى وهى تتكلم حسيمة البصر :
أأكون منكراً لجيالك إلى هذا الحد ؟
ودنت منى أيضاً وهى تقول :
ألم تشعربأنى أميل إليك ... ؟
فصخت :

تميلين إلى ؟ أنت ؟
وانكبست على ركبتي تحتضنهما وهى تقول :
أحبك ..

— وإذا كان هذا مبلغ شعورك ، فلماذا كنت تعاندين
وتكابرين ؟

فرفعت رأسها إلى وعيونها شريقة بالدموع وقالت :
من فرط حبى لك !

- ٣١ -

ونَهَضْتُ فطَوَّقْتُ عُنُقِي بِذِرَاعَيْهَا ، ثُمَّ أَدْنَتْ وَجْهَهَا مِنْ
وَجْهِى ، وَهَمَسَتْ قَائِلَةً :

دُونِكَ شَفَاهِي ... هِيَ لَكَ !

وَعَبْنَا مَعًا فِي عُنَاقٍ حَارٍّ ، وَقِبَلَاتٍ مُسْتَعْرَةٍ ...
وَأَجْلَسْتُهَا بِجَانِبِي عَلَى الْمَتَكِّ وَبَدَا هَا بَيْنَ يَدَيَّ ، عَلَى حِينِ كَانَتْ
عَيْنَايَ لَا تَرَوِيَانِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى شَفَتَيْهَا ... وَقَالَتْ لِي :

لَنْ أَفَارِقَكَ ... لَنْ أَفَارِقَكَ أَبَدًا !

... كَيْفَ ؟

-- أَلَا تَرْضَى أَنْ أَقِيمَ مَعَكَ ؟

... وَأَسْرَتِكَ ؟

... لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ فِي الْعَالَمِ أَنْ يَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ !

وَعَقَدْتُ مَا بَيْنَ حَاجِبَيْهَا وَقَالَتْ فِي صَرَامَةٍ :

سَاقِرٌ مُصِيرٌ بِنَفْسِي . أَنَا حُرَّةٌ فِي تَهْرُفِي . لَا سُلْطَانُ

لَا أَحَدٌ عَلَيَّ !

وَسَمِعْنَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ دَقًّا بِالْبَابِ فَأَلْفَيْتُهَا تَفْرُجُ إِلَى رَقَبَتِي

تَتَعَلَّقُ بِهَا ... تَهْمِسُ فِي زَهْرَاتٍ مُخْتَلِجَةٍ :

لَا تَفْتَحْ . لَا أُرِيدُ أَنْ أَعُودَ إِلَيْهِ !

وَسَمِعْتُ صَوْتَ الطَّاهِي يُسَآئِلُنِي عَنْ طَعَامِ الْمَسَاءِ ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ

أَنْ يَرْجِعَ بَعْدَ فِتْرَةٍ ... ثُمَّ التَفْتُ إِلَيْهَا وَقُلْتُ :

من تخافين ؟

فتحركت شفتاها دون أن تنطق بحرف ، وعدت أقول :

فيم الغزع ؟ ... من تخافين ؟

فقلت والحيرة تجول في مآقيها :

أستطيع أن أعول عليك ؟

— كل التعويل ...

— أقادر أنت على أن تدفع عني كل أذى ؟ أقادر أنت على

حمايتي ؟ حمايتي منه ...

— من هو ؟ ... من ؟

— هو ... هو ..

— أبوك ؟

— ليس لي أب !

— إذن من يكون ؟

فأخفت وجهها في صدري ، وطفقت تنسج قائلة :

لقد كذبتك . كل ما أخبرتك به منحصر اختلاق ...

اغفر لي ! ...

— أوضحى كل شيء ... تكلمي ...

فرففت عينيها إلى وقالت :

لا تحقد علي ... إني فتاة بائسة ... لا نصير لي في الدنيا

— ٢٣ —

سيواك... ألم تقل: لك رغبة في إصلاح أمرى ؟

— عوّلى علىّ واكشنى لى عن متاعبك وهوومك !

— إذن لن يستطيع أن ينالنى بسوء !

— من هو ؟

— هو الذى يأمرنى فأطيع... هو الذى يلقننى كل كلمة

أتقوّ بها، ويرسّم لى كل طريق أسلكه... هو الذى يفرض

علىّ إتاوات يجب أن أؤديها إليه كل يوم... هو أصل بلائى !

— من هو ؟

— هو شيطان لقينى فى طريق الحياة، فحوّلنى من فتاة طيبة

القلب، طاهرة الذيل، أدرس فى معاهد التعليم بنشاط إلى حيث

ترى... أهوى إلى الدرك الأسفل !

— ولماذا لا تتركينه ؟

— لا أدرى... لا أدرى لماذا لا أستطيع تركه... ولكنى

أؤكد لك أن كل شيء انتهى الآن... سأستأنف معك عهداً

جديداً... (إنى أضاع حياتى كلها بين يديك، فألقنى من عثرتى،

وانتشلىنى مما أنا فيه .

— لا تخشى أحداً مادمت معى... كونى على ثقة بأننى

لك نعم الهادى ونعم النصير...

ووجدتها زيج رأسها ثانية على صدرى وترخى أجفانها،

- ٣٤ -

وقد شاعت في وجهها طمأنينةٌ وهدوء....
وغمرنا الصمت والسكون... وأخذ ضوء النهار يشحُب ..
وطال صمتها وهي مسبلة الأضنان . وكان صدرها يعا
ويهبط في حركة منتظمة ، فأحطتها بذراعى في رفقٍ وطفقت
أنتطلع إليها مجتلياً سحرها الخلاب ...
يا لله !... لم أرَها على هذه الفتنة من قبل ...

* * *

استيقظت والصبح قد بدأ يتنفس ، ودرت بعيني أنفق
« ذات الشفاء » .. فلم أجدها ، فناديتها فلم يجبني أحد .. فانطلقت
أبحث عنها في الدار فلم أعثر لها على أثر... فقصدت إلى حجرة مكنتي
حيران مضطرباً ، فوقع بصري على درج المكتب مفتوحاً
والفيت حلقة المفاتيح معلقة بقفله ، فأخذتني العجب كل
ما أخذ ... إن حلقة المفاتيح لا تبرح جبي !
وهضعت إلى الدرج أبحث فيه ، فلم أجدها فحفظت نقودي ..
ووقفت مهوتاً ، وقد انتفخت أوداجي .. وعدت إلى بحثي في دقة
وتحرراً منادياً « ذات الشفاء »... ولكن كل ذلك كان بلا جدوى !..
واندفعت إلى « التليفون » ، أطلب « قسم البغالة » ، وما كاد يجيبني
حتى أعدت الساعة مكانها في عنفٍ وأنا أرددُ :
غلط ! ... غلط ! ...

— ٣٥ —

وجعلت أقطع الحجرة ذهاباً وجيته ، وبغته وقع نظري على
معجم د أبوت ، ملقى على الأرض في إهمال ، متجمعا بعضه على
بعض كشيخ طحنته السنون . وأبصرت بقصاصة الورق تطل من
بين صحائفه فأنحيت أجنتها ، وما إن طالعتني صورة الشفاء الغليظة ،
حتى انهلت عايتها دَعكا وقذفت بها في عرض الحجرة ...
واثنيت على المعجم فوق في وهمي أنه يرمقني في خبث
وتهمك ، فركلته ركلة شتت من أوراقه ، وبعثرت من فصوله ... أ

القبلة الثامنة

قاله أبو نصر ، أحد رواة الأدب في عصر بني العباس :
 كنت عند محمد بن يسار اليزيدي ، أحد أمراء
 الجند في عهد الرشيد ، وكان قد أُرْبِي على السبعين ، وحلّد
 إلى حياة العزلة في قصره المنيف على دجلة ، في
 ضواحي بغداد ، وكنت أزور هذا الأمير بين حين وحين ،
 فنقضي الوقت نعرض معاً عصر الرشيد ، ونتذوق أخباره
 في تشوق واستمتاع . وكان قد مضى على وفاة الرشيد عشرون
 عاماً ونيف .

وقصدت إلى الأمير في أصيل يوم من الأيام ، فوجدته
 في الحديقة جالساً وسط الرياحين على وسائد من الديباج .
 فإني رآني مقبلاً عليه ، حتى لاحت على وجهه ابتسامة وقال :
 كنت أفكر في إرسال من يطلبك الآن يا أبا نصر ...

— خبراً أيها الأمير !

— اجلس ...

فجلست على وسادة ، على مقربة منه . وكان يحيط بنا

- ٣٧ -

نافوراتٍ بحاسِيَّةٍ على شكلِ أسودٍ تَقْذِفُ المياهَ من
أفواهها في عَظْمَةٍ خَلَابَةٍ ، وسمته يقول وهو يحدِّق في
وجنه أسد من هذه الأسود :

في رغبةٍ في التحدُّثِ إليك في حادثة وقعت لي أثناء صِيَابِي ،
يكتسِفها لغزٌ لم أستطع حتى اليوم الإِهْتِدَاءَ إلى حلِّه ...

وتقلَّبَ الأمير على وسائده ، ثم أخرج من صدره
علبةً صغيرة من الخشب ، زَكِيَّةَ الرَّائِحَةِ ، عليها رسومٌ
فارسيَّةٌ جميلة . وناولني إياها ، فأخذتها وأنا أتفحصها معجباً
بدقيق صنعها .

وسمعت الأمير يقول :

لقد عَشَرْتُ اليومَ على هذه التحفة في خِزانة لي قديمة ،
فأثارت في قلبي ذِكْرَى بعيدة . ذكرى محبةٍ بالرغم مما فيها من
غموض .

وفتحتُ العلبة ، فإذا فيها يا قوته " وزمُرْدَةٌ ،
يتوسطها قلب من العاج . فرفعت عيني إلى الأمير متسائلاً ...
فقال :

يا قوته ، أم زمردة ؟

فقلت :

لا أفهمُ شيئاً يا مولاي !

- اِستَمِعْ لى فَسَارُوى لَكَ قَصْتِهما .

وكان ضوء النهار قد بدأ ينحسر عن المسكان ، وأخذت
الظلمة تتسلل بخطا جريئة ... وامترخى الأمير في جلسته ، وأسبل
جفنيه وقتا وهو صامت ، فحسبته قد أغنى . ولكنه لم يلبث أن
تكلم في صوت خافت يقول :

كنت ذات مساء جالسا فى موضعى هذا ، منذ خمسة وعشرين
عاما ، أطلب الوحدة والراحة بعد يوم حاصف مزدحم بالزوار .
وكان ذلك على أثر عودتى من الثغور الغربية بعد انتصارى الخامس
على جيوش الروم ، فرأيت الخادم يتقدم منى فى خطا مترددة .
فقلت له :

ما وراءك يا أبا زهير ؟

فقال ، وقد خفَضَ بَصَرَهُ :

شخص يطلب المثل بين يديك يا مولاي !

فرمينه بنظرة نكراء وقلت :

ألم أخبرك أنى لن أقابل أجدا ؟

- إنها عادة من علية القوم ، تُلح فى طلب لقائك !

- عادة تُلح فى طلب لقائى ... ؟

ونكست رأسى طويلا ، ثم نظرت إلى « أبى زهير »

وقلت له :

أدخلتها... ولكن الويل لك إن كان في الأمر ما لا يستحق
الذكر !

وبعد قليل ، ظهرت غادة ، أنيقة الملبس ، تخفى وجهها خلف
نقاب من الحرير ... تقدمت مني ، وانحنى ، ثم قالت في لهجة
فصيحة :

السلام عليك أيها الأمير !

— وعليك السلام ... اجلسي !

وجلست على وسادة بعيدة عني ، والعطر يفوح منها ،
فيتخاذل عطر البستان إزاهه في خوي . واستطعت أن أرى
ملاعها الفتاة خافت النقاب . فنظرت إلى أبي زهير ، وقلت له :
دعنا وحدنا الآن !

وتركناه أبو زهير ، ومضى وقت الغادة لا تتكلم ولا ترفع
نقابها .

فقلت لها في صوت رقيق :

أما آن للبدر أن يسفر !؟

فألقت بالنقاب جانبا ، فظهر وجهه يسطع كالقمر في الليلة
الظلماء ، فقلت :

لم لا تقتربين يا حسناي ؟

— أنا وصيفة الأميرة دياقوتة ، يامولاي . أرسلتني إليك

في أمر خاص .

فقلت مردداً :

الأميرة «يا قوته» الفارسية ؟

— هي نفسها يامولاي !

وكانت أخبار الأميرة على الرغم من كتمانها لشخصيتها قد
ذاعت في «بغداد» ، ولكنها ظلت على الدوام محوطة بالأنغاز
والأسرار . وكان الناس يروون في شأن جمالها أوصافاً لا يسميها
المرء إلا في الأساطير ، ويتحدثون فيما تعيش فيه من الترف
البالغ أحاديث لا يقبلها العقل السليم ، حتى إنها لفرط جمالها ، وما
يحيط بحياتها من غموض وسحر ، قد أصبحت قبله النظر ، ومسرحة
الفكر . بيد أنها بقيت أمتع من عقاب الجبّ على مريدتها ...

فالتفت إلى الوصيعة ، وقلت لها مبتسماً :

حقاً لقد أحسنت الأميرة اختيار من يمثلها !

نخفضت من بصرها في خفق ... فقلت :

وبماذا أستطيع خدمة الأميرة ؟

فصمت الوصيعة قليلاً ، ثم قالت :

أن تشرّفنا الليلة بزيارتك ...

فأرسلت بصرى في الفتاة أتفحصها . ثم حولت نظري عنها
وقد انطلقت أفكر ، وأنا أقلب الأمر على شتى الوجوه ... ألم

أبذل من جهد ومال - فيما مضى - في سبيل الوصول إلى الأميرة
فرفضت لفائى رفضاً مذللاً تهطمت معه كبرياتى ؟ ... والآن
ماذا جدّ في الأمر ، حتى تبعث في طلبى من تلقاء نفسها ؟ ...
سأرفض بدورى رفضاً قاطعاً ، وسأطعن كبرياءها طعنةً
صائبة ... فازددت اضطجاعاً في جلستى ، وقد أعددت كلبة رفض
رائعة ، فرأيت الوصيقة تترك مقعدها وتقترب منى ، ثم
انحنى في أدب ، وقالت :
والأميرة ترجو منك يامولاي أن يكون حضورك بلبس
الجيش ...

... ماذا ؟ ... أوامر ألقاها على أن أحنى هامتى لها خاضعاً ؟ ..
وأردت أن أردّ عليها ردّاً حاسماً ، فسمعتها تقول في ابتسام :
لا تنس الدرّع والمغفر يامولاي ، ولا السيف ذا المقبض
العاجى المحلى بالياقوت ...

وقبل أن تسمع جوابى ، رأيتها تراجع مبتعدة ، وظلمة
الحديقة تبتلعها !

ولبثت ساعة مشدوها ، أحدى في المكان الذى اختفت فيه ،
وأنا لا أتحرك ولا أنبس بكلمة . ثم رأيتى قد وقفت بغتة ، وناديت
« أبازهير ، ، فما إن لاح شبحه من بعيد ، حتى صرخت :
مائة جلدة .. عقاباً لك على أن أدخلت هذه الدعيّة في حضرتى

— مولاي !

— لولا حرمة شيخوختك، لأطاحت رأسك من فوزى !
وأخذت أروح وأجىء فى الحديقة ساعة ، وأبو زهير واقف
مطأطأ الرأس ذليل !
وأخيراً دنوت منه ، وصرخت فى وجهه قائلاً :
هيسى : لى لبوس الجيش على عجل ... ولا تلبس السيفَ ذا
المقبض العاجى المعلق بالياقوت !
وخرج « أبو زهير » مهزولاً ، واقتفيت أثره إلى الدار ،
وأنا أتمم :
سترى ... سترى ...

* * *

سار فى القارب ، يشق مستن دجلة ، والجو رائق
رخی الذنائب . وطال بنا السير ، إذ كان قصر الأميرة فى
ضاحية بعيدة . ومضيت أفكر فى هذه الدعوة الجريئة ، وهل
أصبت فى تليتها أم أخطأت ؟ ...
ورقع بصرى على المقبض العاجى لسيفى ، وقد التمت
بواقفه تحت أشعة القنديل المعلق أمامى ، وشعرت
بىدى تلمس موضع المغفر من رأسى ، والدرع من
صدرى ... ثم ابتسمت ابتسامة عريضة ... أتممة موقعة

سأخوض غمارها بعد حين ١٩
وبعد وقت لاح القصر من بعيد ، يتلأأ نوراً ، ويأخذ
العنين بهاءاً ١

واقتربنا منه ، ووقفنا القارب ... وما إن قفزت
منه إلى الأرض ، حتى برزت لي فتاة يتبعها شخصان ، وإذا بها
تتقدم نحوي ، وتقول :

أسمع مولاي الأمير أن أرافقه ، لادله على الطريق ؟
وعرفت أنها الوصيفة ، فوقفت برهة أطيل النظر فيها
وفي تابعيها ، وكانا خصيتين في أبهى حلة وأغلاها . ثم قلت
لها مبتسماً :

لم أكن أسمع لسواك يا حسناى أن يأخذ مكان القيادة منى ...
أظنين أن الطريق يستعصى على ١٩

فَضَحِكْتُ ضَحْكَةً صَافِيَةً ، وَقَالَتْ :
كل أمرى يُحَسِّنُ الضَرْبَ فِي مَيْدَانِهِ يَا مَوْلَايَ ...
وهذا الميدان ...

- أليس مَيْدَانِي ١٩

وطرقت سمعى في هذه اللحظة أصوات غناء رقيقة مصحوبة
بعزف عود وناي ، صادرة من ناحية القصر .. وهبت على
أنفاس الزهر الفواح ... وكانت الوصيفة تسير أمامي ، ويدها

مصباح رائق النور . وسرت خلفها ، وأخذنا نصعدُ مرتقى سهلا
لينا ، مَكسواً بجشائش نضرة . فكأننى أخطو على بساطٍ
وثير ، ورحت أعابث أفكارى رهةً وتعابثى ، حتى وصلنا إلى
القصر . فاخترقنا بستانا عظيما ، ومررنا بنافوراتٍ وجداولٍ
وعبرنا قناطر تهدل عليها الأغصان تهدل الشعور على مناكب
الحِسان ... وسرنا بين الخائل الرائعة تتطاير فيها أنفاس الحب
دافئة ريشانة . كلُّ هذا وأصوات الغناء الرقيقة يعودها ونائها
تصاحبنا فرفق وسحر . وأحسست شيئا من الفتور اللذيذ يتسلل
ليّناً إلى قلبى ... ورأيتنى أهمهم :

أحتم أن هذا الميدان ليس ميدانى ؟

وانتهى البستان ، ودخلنا القصر ، فإذا بنا نجوز أبهاءً فسيحةً
رائعة المنظر بألوان حيطانها وزخارفها وريشاتها وأرائكها
وبسطها ... شيء لم أره حتى فى قصور الخلافة ! ... وكنا كلما سرنا
ازداد الغناء وضوحاً ، وازداد قلبى رقة ورهافة ...

وأدى بنا المطاف إلى حجرة تغمرها الأنوار الفياضة ،
رأيتها تزخر بالقيان الباهرات الحسن ، تتوسطهن سيدة متربعة
على شبه عرش ... ما إن وقع بصرى عليها حتى أحسست كأن أنفاسى
قد احتبست ، ووجدت عينيّ قد تعلقنا بها فى شره غريب ...
وسمعنا تقول فى رقة وعذوبة :

أهلاً بالأمير محمد بن يسار ، قاهر الروم وسيد الثغور
الغربية . وسيف الله المسلط على رقاب الكفار !
فهممت قائلاً ، وقد انحنيت أمامها :
السلام على الأميرة يا قوتة العظيمة بجماها وبعريق منبتها !
— وعليك السلام أيها الأمير... تقدم... إن مكانك لينتظرك !
وتقدمتُ إلى وسادة بجوارها ، جلستُ عليها وأنا أقول :
أترينني قد تأخرت في الحضور ؟
— كلا ...

— إن الأميرة قد اختارت لقصرها مكاناً بعيداً عن
بغداد ...

— إنى أكره المدن ، وأحب العزلة في مكان هادئ طليق
الهواء !

— ألا تقدمين بغداد ؟
— أقدمها نادراً ، في الفينة بعد الفينة ...
ثم صمتت قليلاً ، وهي ترسلُ بصرها في ... ثم ابتسمتُ
قائلة :

لقد كنت فيها صباح اليوم ...
— صباح اليوم !
— وشاهدتُ موكب الفاتح العظيم ، وهو يحتاز بغداد على

— ٤٦ —

فرسه الغراء ، محوطاً بفوارسه الأشداء ، تظله الرايات ،
وتلتمع حوله الرماح ...

وألتفت يبصرها على سبيل ، فقالت صائحة :
يا له من درة نفيسة ... ذلك الجبار ذو المقبض العاجي
المرصع بالياقوت ...

ومدت يدها إليه فزعته منى في رفق ، وأخذت قلبه بين
يديها مشغوفة ، ثم مضت تستله من غمده ، وهي تحدق فيه بعين
لا معة ، وتقول :

كم رأساً أطاح ؟

— عدداً لا يحصى أيتها الأميرة !

— ولكنه أملت كخد العذراء ... يا لله ... إن الجمال ليختلط
فيه مع القسوة ، فلا تدري أرسول الموت هو حقاً أم رسول
الغرام ! ...

وأدنته من فها ، وقبّلت حده . وأنا أنظر إليها كالسحور ،
ثم هبت واقفة ، وقالت :

هبنى إياه أيتها الأمير !

— سيدنى ...

— أنرفض ؟

— فابتسم قائلاً :

— ٤٧ —

إن القائد بلا سيف ، كالغانية بلا لحظ !
 — أو تحسب نفسك في ميدان حرب ؟! ..
 فأجبت وأنا محتفظ بابتسامتي :
 إن الميادين واحدة ، وإن اختلفت الأسماء ...
 فلا طقت خدسي ، وقالت :
 أريد أن تعلن علينا الحرب . ونحن كما ترى قومٌ عُرُل ؟
 — عفواً أيها الأميرة !
 فضحكت ضحكة ثابتة . وقالت :
 سأناله منك ، رضيت أم لم ترض !
 وذهبت إلى أحد أركان الغرفة ، فعلقته ، على جداره بعناية .
 ثم عادت إلى ، ووقفت قبالي . وقالت وثغرها مفتحة وعيناها
 مستبلتان :
 سنعوضك خيراً منه أيها الأمير !
 وقبل أن تفسح لي المجال للكلام ، صاحت :
 علينا بالطعام !
 وأقبل سربٌ من الوصيفات الحسنات ، يرقلن في أثوابهن
 الفخمة ، بعضهن يحملن الأباريق والطسوت يفوح منها أرجُ
 الورد ، والبعض يهتئن الموائد ، ويأتين بصحاف الطعام
 الشهي المختلفة الألوان ...

وخلعت مغفري ودرّعى ، ثم غسّلت بماء الورد يدي ،
وأقبلت على المائدة ، وبدأت آكل ، وقد عاد القيانُ إلى غنائهنَّ
السّاحر . ثم جاءوا لنا بقتينات الخمر الفاخر ، فانطلقت أشرب منها
وعيناي لا تفارقان وجه الأميرة .

وكانت الأميرة في الحين بعد الحين تستوضحني مغامراتي
الحربية ، فأرويها لها في دقة وتنميق يثيران اهتمامها وشغفها ،
فتقبل عليّ تطلب المزيد .

..... وانتهى الطعام ، وأنا في شبه حلم بما أرى وأسمع .

وهمت الأميرة في أذني :

أترك راضياً عن هذه الزيارة ؟

فترنّح رأسي قليلاً ، وهمت بهمت :

إنني لأحسب نفسي قد استشهدت في حرب الرُّوم . وما
هذا المكان الذي أنا فيه الآن إلا الجنة التي وعد بها الشهداء
المقنون ! ...

فابتست الأميرة ابتسامة رحيمة .

وبدأت الوصيفات يرفعن الموائد ، ثم أخذت القيان يتسللن
خارجات . ولم تقص إلاّ برهة وجيزة ، حتى رأيتني وإياها
منفردَيْن في القاعة ، وقد اضطرّجعتا على الوسائد اللينة ... وسمعتها
تقول في صوت الحالم :

— ٤٩ —

لم تبق إلا موقعة الخندق... لم تحدثني عنها !
 — موقعة الخندق ؟ ... وهل جاءتك أخبارها ؟
 — حمل الرواة نُسفاً منها إلينا ...
 — رَجِمَ بالغيبِ ما سمعتِ أيتها الأميرة !
 — كيف ؟

— إن موقعة الخندق لم يشهدها سوى وعشرين فارساً من
 الأعداء ، حصدهم سبني حصداً ، فلم ينجُ منهم أحد ... فكيف
 يستطيع غيري أن يعلم تفاصيلها ؟
 وأحسست جسمي يتقيد كشعلة ملتهبة من جراثم ما شربته
 من الخمر . فقميت ، وجعلت أقصُّ على الأميرة في حماسٍ منير
 موقعة الخندق ، وأمثلُ حوادثها تمثيلاً دقيقاً ، والأميرة مصوبة
 بصرها إلى ، لا تطرف لها عين ، وقد دصمت خدَّها بكفها ،
 وراحت تسمع في تشوُّف ...

وما كدت أتبي من سرِّد القصة ، حتى ألقيت بنفسي على
 وسادة الأميرة بالقرب من قدميها ... وشعرت يديها تأخذان
 برأسي ، وتوسده حنجرًا ، وانطلقت تمسح وجهي ... ثم تلاقت
 نظراتنا طويلاً ، وسمعتها تقول :
 ما أروع منظرَ البطل ساعة الهزيمة !
 رفعت رأسي قليلاً ، وقلت :

آية هريمة ؟

فقال في صوت لين المكاسر :

إن من الهزائم ما يعدُّه البعض انتصاراً أيها الأمير !
ورأيتني ألف ذراعى حولها ، وأجذبها نحوى ، وقد أدنيت
من وجهها وجهى . ووجدت شفتى ترعشان ، وهما تتأهبان
لاغتصاب القبة العظيمة ...

ومكث الوجهان برهة متقابلين ، لا يفصلُ كلاهما عن
الآخر إلا أنفاسٌ حارةٌ تراسلُ بها الشفاهُ !
وفي لحظة انفتحت الأميرةُ عنى ، كالسمكة تنملصُ من يدِ
الصيد ...

ورأيتها تهمهم ، وقد برقت عيناها بلمعة قاسية ، فيها
تحدُّ وفيها كبرياء :
لن تنالها !

ووقفتُ مأخوذاً أحدقُ فيها ، ومرَّ برأسى خاطرٌ محاولتى
الأولى ، وما أصابنى فيها من إخفاقٍ مذلٍّ . ففقدتُ ساعدى ،
على صدرى ، ورمقتُ الأميرة بنظرة تتجلى فيها السيادةُ ، وقلتُ :
سأنالُ القبةَ ، رضيت ، أم لم ترضى !
ولحظتُ أنها تهمُّ باستدعاء أعوانها ، فقفزتُ إلى سيفى ،
فانزعته من الحائط ، ثم تقدمتُ منها . وأنا مستوثق من نفسى ، وقلتُ :

جبرني، واستدعى من تشاين... وانظري كيف يكون
مصيرهم !

فظلت صامتة برهة، تختبرني بنظرها الثاقب . ثم لاحت
على وجهها ابتسامة عابثة . وقالت :

كلاً أيها الأمير... كن مطمئناً ... لا أرغب في دفعك إلى
مركز خندق أخرى، قد لا يواتيك النجاح فيها !
فقهقت طويلاً، وأنا أتأمل حدّ سيني اللامع ...
وسمعتها تقول :

وإذا طلبت منك مغادرة القصر ؟

— قبل أن أنال القبله ؟ ... هيهات !

— من تظني أيها الأمير ؟ ... أعظيئة من عاظيك ؟ !

— وأنت أينها الأميرة ... من تظنيني ؟ أطفيلي مهرج،
يقنع بأكله فاخرة ثمناً لما يرويه لك من القصص، وما ينشده
من الشعر ؟ !

وصمتنا زمناً، وعيوننا متلافة لا تطرف. ثم رأيت الأميرة
تبسم، وقالت في تمهل، وقد حولت نظرها جانباً :

بالنا من أحققين !

— هذا ما كنت على وشك أن أقوله !

وانطلقنا دفعة واحدة نضحك، وقد ارتفع صوتنا في شبه

— ٥٢ —

صباح . فجاءت وصيفة مهرولة، وقالت:

أطلب الأميرة شيناً ؟

— أجل يا بستان .. أطفئ الشموع ، وأسدي الأستار !

فقلتُ على الفور :

ما معنى هذا ؟

فأقبلتُ على في دلال ، وقالت وعيناها تستعطفاني :

الأيديع لي القائد المنتصر أن أطلب منه مطلباً واحداً ؟

— أوصي يا سيدتي !

فدنت مني ، وهمست قائلة :

لن تنال القبة إلا في الظلام !

— ولكن

ولمحتُ عينيهم —! قد اتقدتا فجأةً بجمرة نار ، وقالت في

صوتٍ مهدج :

هذا مطلبي ... فإن رفضته ، فالحرب بيننا !

وسكتُ حيناً ، ثم ما لبثتُ أن تضحكتُ ، وأنا أداعبه

سحائل سيني ، وقلت :

مشيتك نافذةً أيها الأميرة !

وإذا بي أمسك يدها على الفور . وقلت وقد غارت ضحكى

وتشتتت :

— ٥٣ —

أما إن حدثتك نفسك بسوء ...

— لست بلهاء أيها الأمير ...

وكانت « بستان » الوصيصة قد أوشكت أن تتم عملها في إطفاء
الشموع وإسدال الشُّور... فلم تبقَ إلا شِمة واحدة مضاءة،
فركبتها وخرَّجت .

واخذت الحجرة أمام عيني منظرًا موحشًا، فكأنني انتقلت
في لحظة بقوة غير منظورة إلى مغارة من مغاور السحرة . وكرهتُ
منظرَ الظلال المتراقصة على ضوء الشمعة الفاتر، ولكنني لم
أحباً به، وقلت :

ألا تذهبن من هذه المِهْزلة ...؟

فقلتُ في طرأوة ساحرة :

لا تكن عجولاً أيها الأمير !

وأطفأت الشمعة، فلم أعد أرى شيئاً، ولكنني كنت أحس

وجود الأميرة من صوت تنفُّسها، وحركة يديها ...

وأخيراً شاهدتُ أمراً عجيباً ... ثلاثة نجوم صغيرة كأنها

الوشم تتلألأ على صديدها العاري، وسمعتها تقول وهي ممسكة

يدي :

كلُّ من كان من نسل الأكامرة يحمل على صدره هذه النجوم

الثلاثة

وكنت لا أرى من الأميرِ إلا هذه النجومَ اللامعة تتلألا ،
فتير حولها هالةٌ من الصدرِ في حجمِ كفِّ الطفل . أما غيرُ
ذلك فظلامٌ في ظلام !

وأمسكت ببنكيتها ، ولبثت أحدى في تلك النجوم الثلاثة
منفصلاً إياها في دقة . ثم قلت :

ياله من وشم جميل ، يزيدُه حسناً هذا الصدرُ البضُّ الجميل !
وأدبنتُ وجهي منه ، فأبعدتني في لطف ، وقد غطت صدرها
وهي تقول :

أظن أنه وشمٌ كسائر الوُشوم من صنع البشر ؟
— إذاً ما هو ؟

— إن الطفلَ ليولده وهو يحملُ على صدره شارةَ النبل هذه
أيها الأمير !

— عجيبٌ ... وهل تعظمُ فارسٌ كثيراً ممن يحملونَ هذه
الشارة ؟

— لا أعرفُ إلا شخصين يحملانِ هذا الوشمَ ...

— أنتِ ومن ؟

— أختي !

— ألك أخت ؟

— اسمها زُمرْدة ...

— ٥٥ —

— لم نسمع بها ...

فصمتت قليلا ، ثم قالت :

إنها اختٌ غير شرعية ، أيها الأمير !

— اختٌ غير شرعية ... وأين هي ؟

— في القصر !

— ولم لم تظهر ؟

— هذه رغبتي ...

وجذبتني من يدي ، وأجلستني على الوسادة ، وقالت

في نعومة :

ألك في كأس من الخمر ؟ ... !

* * *

قال الراوى :

وصمت الأمير محمد بن يسار اليزيدي ، وازداد اضطجاعاً

بين وسائده ، والأسود النحاسية ما برحت تقذفُ بمياهها ،

فتوهج تحت ضوء القمر ؛ كأنها السيوفُ المشهورة !

وطال صمته ، فقلت متشوقاً :

ثم ماذا أيها الأمير ... ؟

فلاحت على وجهه ابتسامة هادئة ، ثم قال :

أليست هذه نهايةٌ صالحةً ، تنقضي عندها الحادثة

يا أبا نصر ؟ ...

— والقبلةُ أيها الأمير ؟

فتمطى الأميرُ ، وأرخى جفنيه ، وهو يقول في لهجة الحالم :
يا لها من ليلةٍ رائعة ، على الرغم من حُلوكتها ، واكتشافها
بالأسرار ، لم أقصُ في حياتي أطيّبَ ولا أبهجَ منها ...
ولكن ...

— ولكن ماذا يا مولاي ؟

— أيا قوتهُ أم زُمرُدة ١ ؟

— بربك زدني إيضاحاً أيها الأمير !

— استمع لي يا أبا نصر ، ثم أسعفني برأيك في اكتناهِ هذا

الغز العجيب ...

وعاد الأميرُ محمدُ بنُ يسار اليزيديُّ ، إلى جلسته الأولى ،
ووصلَ ما انقطعَ من حندينهُ الأول ، وهو يداعبُ
لِحيتَه ... قال :

وأخيراً أخذتني الأميرةُ من يدي في الظلام ، وصدرُها
العارى البضُّ تلتلُّلُ فيه الأنجم الثلاثة ، ودنت من الشَّصمة
فأشعلتها . وما كدتُ أتبين وجهاً على الضوء الناصِل المرتعش ،
حتى وثبتُ كأنما لدغني أفعى ، وصرختُ :
من أنتِ ؟ ... من تكونين ؟

فابتسمت في خبث زادها بشاعة إلى بشاعتها، وقالت :

خادمُك زمرُدةٌ

— أخت الأميرة ؟

— نعم أيها الأمير !

— وأي شيطان جاء بك الساعة ؟ ...

— أنا معك من أول الليل أخضتُ مكانَ الأميرة

بقربك ...

فقلتُ لها وأنا ارتعشُ :

أترُصينَ أيها الشقيّةُ أنك كنتِ جليستِي في الظلام

طولَ الوقتِ ؟ ... خَسِئتِ ... كَذَبٌ وبُهْتَانٌ ما ندَّ عينِ

وهجمتُ عليها ، لأمسِكَ بها ، فظهرتِ الأميرةُ « يا قوتهُ » ،

على الأثر ، وسمعتها تقول :

أهكذا تعاملُ أخِي أيها الأمير ؟

ولجأتُ « زمرُدةُ » إلى أختها ، ووقفتُ بجوارها ، عزيمةٌ

بها ... يا لله ! ... كان قتوأمُها واحداً ، وصوتُها متماثلاً ،

وإشارتُها متشابهةٌ .. وهذه الأنجمُ التي تزينُ صدرَهما ...

كأنَّهما توأمان ، إلا في السَّحنةِ ، فالأميرةُ تفرقُ

جمالاً وعُدُوبةً ، على حينِ تبدو الأخرى في دَمَامَةٍ

وبَشَاعَةٍ !

وجعلتُ أنقلُ عينيَّ بين « ياقوتة » و « زُمُرُدة » ، وقتاً
ثم صرخت :

كلا ، كلا ... كذبٌ وبُهتانٌ !
فابتسمتُ الأميرةُ ابتسامةً وضّاحةً ، وقالت :

هو الواقعُ أيها الأمير !
وتلستُ سيبقى فلم أجده ، وفطنتُ الأميرةُ إلى مايجولُ
في خاطري ، فقالت وهي ما زالت محتفظةً بابتسامتها :

لقد رِضيتُ أن تهَبني إياه !
وكانتُ الشموعُ كلها قد أشعلتُ ، والاسْتارُ
بأكليها قد رُفعتُ ، ووجدتُ في كَمَلحِ البَصَرِ عشرينَ
عَبْدًا من أشدِّاءِ العَبِيدِ مُدَجَّجينَ بالسَّلاحِ ، قد أخذوا
يُطَوِّقُونَنِي ...
وقالتُ الأميرةُ :

لن تتكرَّرَ مَوقِعَةُ الخَنْدَقِ في قَصرِي أيها الأمير !
ثم أشارتُ إلى العَبِيدِ ، وقالتُ :
إنهم خُراسكُ حتى تصلَ إلى السفينةِ في أمانٍ ... طابَ
ليلاكُ أيها الأمير !

ولبتُ حيناً أرقُبُها ، وهي تسيرُ ، حتى اختفتُ عن
ناظريَّ ، وأنا في ذُهلٍ كمن فَقَدَ عَقْلَهُ ... ورأيتُني

أسيرُ ، والعبيدُ أُمَامِي وَخَلْفِي ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى السَّفِينَةِ ...
 ... وَمَا إِنْ عُدْتُ إِلَى دَارِي ، حَتَّى قَابَلَنِي نَخَامِي
 « أَبُو زُهَيْر ، وَقَدَّمَ لِي هَذِهِ الْعُلْبَةَ الَّتِي تَرَاهَا بَيْنَ يَدَيْكَ ،
 فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ الْآنَ ... رَأَيْتُ فِيهَا يَاقُوتهَ وَزُمُرُدهُ يَتَوَسَّطُهُمَا
 قَلْبُ مَنْ الْعَاج . فَالْتَفَتُ إِلَى الْخَادِمِ مُتَسَائِلًا ، فَقَالَ :
 إِنَّهَا هَدِيَّةٌ مُقَدَّمَةٌ لِلْأَمِيرِ ...
 - تَمَسَّنْ ؟ -

فَاخْتَلَجَ صَوْتُ الرَّجُلِ ، وَقَالَ :
 أَنْتِ بِهَا الْغَادَةُ الَّتِي حَضَرْتَ لِلْقَاءِ الْأَمِيرِ قَبْلَ الْعِشَاءِ ... !
 فَمَا كَادَ يُتِمُّ جَلِيسَتَهُ ، حَتَّى أَلْقَيْتُ نَفْسِي قَابِضًا عَلَى رَقَبَتِهِ ،
 أَحَاوِلُ أَنْ أَخْنُقَهُ !

وَمَسَحَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسَارٍ الْيَزِيدِيُّ ، وَجْهَهُ بِمَنْجَرِيهِ
 الْمَعْطَرِ ، وَهَمَّ قَائِلًا :
 حَتَّى الْيَوْمِ لَمْ أَهْتَدِ إِلَى حُلِّ هَذَا اللَّعْنِ يَا أَبَا نَصْرٍ ... مَعَ مَنْ
 قَضَيْتُ هَزْبِعَ لَيْلِي ؟
 فَابْتَسَمْتُ وَأَجَبْتُهُ قَائِلًا :
 عَلَامَ هَذِهِ الْحَيْرَةِ يَا مَوْلَايَ ؟
 - كَيْفَ يَا أَبَا نَصْرٍ ... !

- ٦٠ -

— أليست العبرةُ بالمتعةِ أيها الأمير؟ وقد قلتَ إنها
كانت أروعَ ليلةٍ قضيتها في حياتك ... ١
— هذا حقٌ ، ولكن أيسوى الحُسن والبشاعةُ في
الخيال إلى هذا الحدِّ يا أبا نصر؟
فابتسمتُ وابتسم الأميرُ ...
ثم صاحَ قائلاً :
الطعامُ يا غلامُ ... ١

ملاريا الحب

حَمَدْتُ اللهَ على أنى أَنَيْتُ عَمَلِي مُبَكِّراً فى عِيَادَتِي ، فقد
كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ مَسَاءً حِينَ وَدَعْتُ آخِرَ مَنْ قَدَمُوا عَلَيَّ مِنْ
الْمَرْضَى . وَقُلْتُ لـ « حَسَن » ، الْمَرَضَى ، وَقَدْ خَلَعْتَ مِعْطَفِي الْإِيضَ
وَتَرَكْتُهُ لَهُ :

حَسْبُنَا مِنْ جِئَانَا الْيَوْمَ ... انْتَهَتْ عِيَادَةُ اللَّيْلَةِ ... أُرِيدُ أَنْ
أَخْلُو بِنَفْسِي حِيناً حَتَّى أَسْتَعِدَّ لِحَفْلَةِ نَادَى الْأَطِبَّاءِ .
وَقَصَدْتُ إِلَى الصُّنْبُورِ ، وَجَعَلْتُ أَغْسِلُ يَدِي ، وَسَمِعْتُ
« حَسناً » يَقُولُ :

مَوْعِدُ الْحَفْلَةِ التَّاسِعَةِ يَا سَيِّدِي .

— عَلَى مَرَاجَعَةِ الْمَخَاضَةِ الَّتِي أَعَدَدْتُهَا لِأَلْقِيَاهَا ضِمَّنَ
مَخَاضَاتِ اللَّيْلَةِ ... وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمْضِيَ بِسَيَّارَتِي مَتَزُجّاً بِبَعْضِ
الْوَقْتِ ... لِأَنَّهَا دَلَّى بَابَ الْعِمَارَةِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تَرَكْتُهَا فِيهِ ...
أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

— لَقَدْ أَوْصِيْتُ بِهَا حَارِسَ السَّيَّارَاتِ .

— خيراً فعلت .

وكنت قد فرغت من غسل يديّ ، فضيت إلى حجرة عملي ،
وجلست إلى مكنتي ، وبسّطت أمامي أوراق المحاضرة ، وشرعت
أطالع وأراجع ...

وما كادت الساعة تقترب من الساعة ، حتى كنت خارجاً من
باب العبادة وقد حملت محفظتي الصغيرة محتوية المحاضرة .
وكنتُ جِدّاً مسروراً من نفسي ، إذ استطعتُ أن أجمل في
هذه المحاضرة زُبدةً وافيةً لأحدث الآراء في مكافحة الملاريا ،
فقد كانت أحملة الليلة خاصة بها ...

مررتُ من باب العمارة ، واتجهتُ إلى السيارة فلمحتها
قابعة في مكانها الذي تركتها فيه ، وكانت من السيارات الصغيرة
ذات المقعدين ...

صعدتُ فيها على عجل ، وسرعان ما أدتُ مفتاحها ،
فانطلقتُ تطوي الطريق ... وكانت حفلة الليلة تستغرق
تفكيرى كله : ماذا هو مقدرُ المحاضري ؟ كيف يكون
وقتها على الاستماع ؟ ... وكنت قد أبقيتُ معطفتي الأسود
على المقعد الآخر من السيارة ، فلمحته عيني في مكانه .
واجتزتُ شارع إبراهيم باشا ، وما إن أشرفتُ على شارع
الملوك نازلي ، حتى أيقظتني من أحلامي حركة صادرة من

ناحية المعطف . فالتفتُ التفاتة عَجَلِي فإذا المِعْطَفُ على حالةٍ
ولكنني ما لبثتُ أن سمعتُ حركةً أخرى أشدَّ وقعا ، فوجدتني
أخفف من مرعة السيَّارة وأحدقُ بِجِواري مستطلعا فإذا
بالمِعْطَفِ يتحركُ ، ففَزَعْتُ وهاجَمَتْنِي الظُّنُونُ ، فوقفتُ
السيَّارةَ مهتاجَ النفسِ ، وأضأتُ المصباحَ على الأَثَرِ ، وظهرتُ
في الحالِ يَدانِ من المعطفِ بِسَاعِدَيْنِ يِضَاوِينِ . فتَحَفَزْتُ
في حَذَرٍ وقد توجَّستُ شَرًّا ، ولم أكنُ أَفْتَحُ فِئْسِ متسائلا ،
والذهولُ يملِكُنِي ، حتى طالعتُني وجهُ حَسَناءَ . وإذا بي
أسمعُهَا تقولُ :

إلى أين تريد أن تذهبِ بي يا سيدي ؟
فبادرُهَا بقولي ، وعيناي عَمَلِقَتَانِ :
من أنتِ ؟ وماذا جاء بكِ إلى السيَّارة ؟
ووجدتُ الفتاةَ تَسْتَوِي في جِلْسَتِهَا ، وتُنَحِّي عَنْهَا
جانبا من المِعْطَفِ الذي كان يُخْفِيهَا ، وقالتُ :
معذرةٌ إذ اتخذتُ مِعْطَافَكَ لي غِطاءً بِمَضَ الوقتِ ...
أردتُ أن أتقَّ به برادرُ البردِ !
وتبادرَ إلى ذهني أنها حيلةٌ تبغِي بها إحدى اللغواني معايشي ،
فقلتُ في شيء من الخشونة :
ما شأنك ؟ تكلمِي ... وقِي أئمن من أضيَّعَه في مثل

هذه المهازل ا

فرمتنى بنظرة يتجلى فيها أسفٌ وعتابٌ، وراحتُ تصلحُ
من هُندامها، وتصفّفتُ شعرها واستبانلى أن وسامتها يكسوها
ظل من النُحول والامتقاع. وأنها لم تعن بزيتها ولكنها مع ذلك
ذاتُ فتنة ظاهرة. وقد استرعى انتباهى على الفور لونُ شعرها،
إذ كان متميزاً بمُمرته القانية، مسترسلاً على كتفها متموجاً
يهرُ النظر... وسمعتها تههم :

إنه لا تَتَّفَاقُ غريبٌ ذلك الذى جعلنى أدخلُ سيارتك .
ثقأتى لم أتعُد ذلك . كانت أول سيارة واجهتنى فدخلتها . لم يكن
من ذلك بدّ... وأنت الآن بين أمرين : إما أن تسمع لى
بالنزول ، وإما أن تبلغنى دارى . ولك بملءِ حرثك أن تختارَ
أحدَ الأمرين ..

وكانت تتكلمُ فى أدب ظاهر واحتشام ، بلهجة تنطوى على
أنفة واعتداد بالنفس .. وأزاحتِ المعطف كله عنها ، فإذا هى
فى لبوس المنزل : رداءٌ حريرى سابعُ سماوى اللون ، رَشِيقٌ
على الرِّغم من سداخته . ولاحظتُ أنها عاطلٌ لا تتحلّى بشئ .
وقد نظنتُ إلى دهشتى لما هى عليه من زى ، فقالت وعلى
فها ابتسامة مهملة :

حتى الحذاء لم ألبسه كما ترى ... انظر ... خرجتُ

بحفّ المنزل ا

وحرّكت قدميها لتريني الخفّ. ثم واجتني بقولها وهي
تعالج فتح باب السيارة :

سأترُكك يا سيدي... شكراً لك على أبة حال ا
وكانت عيناها سوداوين عميقتي التأثير ، ترخران بعواطف
غامضة على الرغم مما يلوح عليهما من إعياء وجهد . واستواني
صوتها الموسيقي ذو الرعشة المحببة والغنة الأخاذة ، ذلك
الصوت الهادي الطبعي الذي ينساب إلى أعماق النفس فيثير فيها
شتى الأحاسيس .

وجعلت تبحث عبثاً عن مقبض الباب ، فقلت لها :
ليس للسيارة إلاّ مدخل واحد ، هو الذي يليني ...
— إذا أرجو أن تفسّح لي .

ونظرت إليها ملياً تأملها ، ورأسي تطوف به أفكار
متضاربة . ثم وجدتني أطفئ المصباح ، وأدير مفتاح السيارة
على مهل ، نطقت بنا خطواتها الهيئنة ، وسمعت الفتاة تقول :
لماذا لم تدعني أبرح السيارة ؟

— لقد اخترت الأمر الآخر ... سأبلغك دارك ...
أين تسكنين ؟

— مصر الجديدة .

— هي وجيتي أنا أيضاً ...

— كيف ؟

— إنني أطلبُ النزهة واستنشاقَ الهواء الطلق .

— ولكن يا سيدي ...

— لا أستطيعُ أن أدعَ سيدة في عَرَضِ الطريق وهي في

لبوس المنزل .

— لا بدَّ أن شقي الهواء من تناسُوك في شأني ... امرأة في

هذه الساعة . في سيارتك على غير معرفة ، في لبوس المنزل ...

— لا أخفي عنك دهشتي ... ولكنني قليل الفضول ...

تستطيعين أن تصوني سرِّك عني !

— أشكر لك ... كلُّ ما أريدُ أن أخبرك به هو أن تتقَ

بحسنِ نيتي .

— لم يسؤْ بك ظني .

— ولم هذه الثقة العاجلة المرتجلة ؟

فابتسمتُ وأنا أحرِّكُ في يدي عجلة القيادة ، وقلت :

الحقُّ أني لا أدري لماذا !

— ألا تخشى أن تكونَ مخطئاً ؟

— أرجو ألا أكونه ... !

ومضت السيارةُ تحترقُ شارعَ الملكة ناولي ، في سَيْرٍ

تؤيد ... كان الهواء رُخاء يحمل في أطوائه تباشير الشتاء
بنشاطه وانتعاشه . وكان الليل ساجياً والطريق يكاد يكون
خالياً إلا من بعض سيارات الجيش الضخمة تمر بنا في
جلبة وضجة فتزلك لها سيارتي الصغيرة ، ثم لا تلبث
السكينة أن تُخيم على جانبي الطريق ... وتولانا الصمت
وقتا ، ورحت أفكر في أمر هذه الفتاة التي رماني بها القدر
في تلك الساعة :

ما شأنها ؟ أمن الغانيات هي ؟ أمن الأسيرة الكريمة ؟
أمن تلك الفتيات اللواتي نُسَمين "أنصاف العذارى" ، هل
قصدت سيارتي قصداً ؟ ... وسممتها تقطع علي تفكيري كأنها
تحدث نفسها :

ألم تحرر نصرأ في حياتك تعتد به ياسيدي ؟
فقلت :

لم تخل حياتي من ساعات نصر ...
— أقصد نصرأ حاسماً ، كأنك خُضت معركة دامية كان
لها أثر فاصل في حياتك ، معركة خرجت منها وأنت تشعر
بأنك دفنت عهداً مُدبراً ، واستقبلت عهداً جديداً ...
— لا أدري على وجه التحقيق .

— أما أنا فقد نلت هذا النصر ، نلته الليلة ، ياله من نصر عظيم !

كانت تقول ذلك بلهجة ملوؤها الزهو والاعزاز . وبعد
 لحظة واصلت حديثها قائلةً وهي تحدق أمامها تحديقاً ثابتاً :
 إن ثمة لذة لا تفوقها لذة أخرى ، هي تلك الوقفة التي
 يقفها المحارب وقد سقط خصمه بين يديه صريعاً . ذلك الخصم
 الذي طالما ناوأه وأعباه وأذله .. إنها لنشوة عجيبة ، وإنه لشعوره
 عظيمٌ حقاً .. كنت أنكر على المقاتلين قسوتهم وأنعى على الحرب
 ويلاتها ، ولكنني حينما خضتُ معركتي ، ونلتُ فيها نصري ؛ —
 عنرت كل مقاتل سفاكاً !

— يدهشني أن أسمع ذلك الرأي من مثلك ... المرأة ينبوع
 الشعور للرهف ، ومستودع الرحمة والحنان !
 — الطبيعة الإنسانية لا تختلف بين الرجل والمرأة ...
 — قد تكون الطبيعة واحدة بين الجنسين ، ولكن أراك
 تعنّفين في التعبير عن هذا الشعور ...
 — لو كنت يا سيدي بمن يخوضون المعارك الدامية ،
 ويمارسون المقاتلة والعراع ؛ — لما رأيت فيما أقول شيئاً من
 المفالاة ...
 — إني أخوض معارك الدماء منذُ أمدٍ ... ولكن في
 صورة خاصة !

— لست بجندي على ما يلوح لي ؟ ! ...

— ٦٩ —

— لا صلة لي بالجندية .

— هل لي أن أسألك إلى أبنه الهيئات الاجتماعية

ننسى ؟

— إلى الهيئة التي يلقيها الناس بجزاري بني آدم الذين يحميمهم

القانون !

— أنت إذن جراح ..

— أصبت !

وانطلقت منها ضحكة رقيقة ، فقلت لها :

أقدم لك نفسي : دكتور شهدي ، عيادتي في العيادة التي على

بابها أضافتك سيارتي المتواضعة ...

— تشرفت يا سيدي الدكتور .

وكنا قد شارفنا « منسية البكري » ، وازداد الطريق إفقاراً ،

وتقلقل فيه الصمت والسكون . وتتابعت نسبات الليل تهب علينا

باردة منعشة . ورأيت جارتني تتحسس معطني وتدس يدها في طياته

فقلت من فوري :

الأتيلين هذا المعطف المسكين شرف تدثركِ به مرة

أخرى ؟

— أشكرُ لك هذه العاطفة يا دكتور ! ...

وبادرتُ بيسطر المعطف عليها ، وإذا بها تقول :

— ٧٠ —

أستَ الدكتور عبد الحميد شهدي ، صاحب المباحث الطيبة
التي تطالع بها الصحف بين حين وحين ؟
— قد أكونه !

— قرأت لك في الأهرام منذُ أيام بحسبك في الملايا ،
ووجدت لك في مجلته الحكمة هذا الشهر بحسبك في البيسيلين
وأثره في الجراحات ، وأذكر أن قرأت لك منذ أشهر نصائحك
في التعقيم ...

— عجباً ! ... أتأبين أمثال هذه المباحث الجافة ؟
— لي بالطب ولع ... أسمح بأن أقدم لك نفسي : « سميرة
عزت » ، واتسابي إنما هو لاني ...
— أكان لك أن تتسبي لغير أهلك ؟
— كان لي زوج ... يرحه الله !
— أماتَ منذ مدة ؟
— دفتته الساعة !
— الساعة ؟

— دفتته ونفضتُ منه يدي ، ونزلت فاستقبلتني
سيارتك ...
— سيّدتي ؟

— لقد صرعتُ هذا الزوج واتيت من أمره .

— إنها لألفاز !

— ألم أقل لك إنى نلت نصرأ حاسماً ؟ ما زلت أتمثله وهو صريع

أمامى ... انتهى .. انتهى كل شىء !

وصممت ، فقلت مدهوشاً : أفصحى ... !

فقال فى لهجتها ذات الرعشة المنغمة :

إنه قتيـل فى نظرى ، أما فى نظره فليس يهمنى أن يعتبر

نفسه حياً ...

فتفتست فى ارتياح ، وواصلت هى حديثها :

أمر لا يؤبه له ... إنها خز عيالات الحياة . لنعد إلى قصة الطب .

أرغب فى أن تتعلم أنى من أسرة جُلُّ رجالها أطباء ... كان جدى

طيبيا ، أحمد عزت باشا ...

— الدكتور أحمد عزت باشا ؟ ... من يحمل هذا الاسم ؟ ... إن

نظرياته الصائبة فى جراحة العين غزت معاهد العلم فى أوربة ،

وحظيت بأكبر تقدير ...

— وعى كان طيبياً فى الجيش ، ولى أخ أتم دراسته فى كلية

الطب المصرية ، وهو الآن فى لندن يتخصص فى جراحة العظام ...

فلا يأخذنك العجب إذا وجدتنى أهوى الطب وما يتصل به ...

إنى أعيش عموطة دائماً بأدواته : مشارط ، محاقن ، ضمادات ...

أننى مشبع أبداً برائحة العقاقير ، حتى إنى لأشعر بأن الهواء الذى

- ٧٢ -

أستنشقه يحملُ من ذراتها أو فرّ قصب ا
وظفقت تستنشقُ الهواء حواملٍ رمتها . ثم عادت تقول:
إني معجبة ببحبك الأخير في الماريا... لقد طالعتك غيرَ
مرة .
— حقاً؟

— إن طريقتك في تبسيط العلم بذلك الأسلوب السهل المحبب
لا يجاريك فيها طيبٌ آخر... كنتُ أقرأ هذا البحث فكأنني
أستمعُ بقصة طريفة ... هذا فضلاً عما يتجلى في مباحثك
من نزعة إنسانية كريمة ...

— إني لجذبٌ مغتبطٌ بإطرائك مقداً، ولكن يلوح لي أن...
فقاطعتني كأنها غيرُ معبئة بقولي:
لما عرفتك الساعة تبين لي على الأثر وجه الصلة بين شخصك
وبين ما تخطه أناملُك... إن مباحثك لمرآة صافية تراءى على
صفحتها المصقولة صورة نفسك في جلاء...

— سيدتي، إنك تغمرينني...
فتابعت قو لها كأنها لم نسمعي:
إن الكاتب ليظل مجهولاً لكل الجهل عند القارىء، مهما يقرأ،
فاذا ما تعرف به...
— وقعت الكارثة 1

— فإذا ما تعرّف به رأى القارىء نفسه تجاهَ حالتين، فإما انهار ذلك الصرّحُ الشاخ بما يحويه من فتنة وسحر، انهار ألا قيام بعده، وإما أن يزدادَ هذا الصرّحُ تمكناً وسموّاً، وحينئذ تتوثقُ صلة الكاتب بالقارىء، وترتفعُ مكانته عنده درّجاتٍ .

— أهو شعورٌ يشاركك فيه كلُّ قارىء ؟

— يُخيّل ذلك إلىّ، وعلى أيّة حال فهو شعورى الخاصّ... وقد تعلّمتُ منه أن أتجنبَ معرفة من أقرأ لهم، إذ طالما مُنيتُ بجنيّةٍ أمل قاسية...

فتتحنّت قليلاً، ثم قلت :

ألى أن أعرفَ موقعي في هذه القضية ؟

فتلاّعبتُ بطرَف معطّنى، وقالت : حسبك أن تحرّرا وانتهتُ، فإذا « مصرُ الجديدة »، تلوحُ أمامي دونَ سابقٍ إنذارٍ أو تمهيد، كأن الليلَ الغارقَ في ظلمته وصمّته قد انشقَّ عنها دفقةً واحدة، فبدتْ حِيالَ ناظرٍ كأنها مدينةٌ مسحورةٌ من مدائن الأساطير .

ومهمتُ جارّتي :

إلى أسكن في شارع الخليفة المنصور .

— أعرفه جيّداً، طالما عدتُ فيه بعضَ المرضى، سأبلغك إياه... وسرتُ ووجهتى شارع « الخليفة المنصور »، وأظنّنا

الصمتُ وقتاً ... ورأيتُ فتاتى تعبتُ بجزر من أضرارٍ معطاني ،
وعيناها تحدقانِ أمامها لا تطرفان ، وأردتُ مواصلة الحديث ،
فأعياى الأمر ... وبدرتُ مني سَعلةٌ خفيفة ، وألقيتُ جارتى
تقولُ وهى على حالها :

وددتُ أن أجدلى عملاً في الحياة ... إني تواقّة لأن
أمارسَ أية مهنة !

— أى عمل تصبو إليه نفسك ؟

— أقبلُ أى عمل ... أريد أن أشغلَ وقى ... أملاً ذلك
الفراغ الذى يحيط بى ... أدفع تلك الوحشة التى تشيعُ فى نفسى !
وكان الهلالُ الوليدُ قد بدأ يلوحُ فى الأفقِ البعيدِ شاحباً
ضئيلاً يتعثرُ نوره الوجيلُ بين الأبنية الضخمة، فكأنه يحاذرُ أن
يكشفَ السّترَ عن أسرارِ خليقة بالكتمان ... وانتشرتْ خيوطه
الواهمة على وجه جارتى فأكسبتها حمراً الأطياف ... وتسالتِ
الاضواء إلى شعريها القانى سابحة مضطربة على موجاته اللطاف ...
ووجدتني أقول :

أتحسّين أن المرأة للعملُ خلقت ؟

فقلت :

لاى شيء خلقت ؟

فأمسكتُ عن الجواب ، ورأيتنى أخففُ من سرعة السيارة ،

— ٧٥ —

وأبساطاً بها تباطواً جعلَ سيرَها أقربَ إلى سيرِ الأقدام ...
وخيل إلى أنى آخذُ بيدِ فتاى أجوزُ بها الطريقَ مترَجِّلاً هينَ
الخطواتِ .

واختلجت شفتاى بقولى :
المرأة لم تخلق إلا لأمر واحد ...
— وما هو ؟

— إنها خلقت للحب !
فراعتنى منها نظرات ملتمعة ، وقالت :
الحب ؟

— الحبُّ وظيفة المرأة ، وظيفتها الأولى فى المجتمع ... !
وعلا صوتها أكثرَ من ذى قبلُ وهى تقول :
وإذا كان هذا الحبُّ أصلَ بلائها وجميع حياتها ، لم تنل منه
غيرَ الحيرة والإذلال ؛ فإذا تصنعُ ؟
— تبحثُ عن حبٍ آخرَ .. حُبٍّ جديدٍ يحلُّ محلَّ الحبِّ القديمِ
ويطاردُهم ... لا يفِلُّ الحبُّ غيرُ الحبِّ ... ألم تسمعى قولَ الشاعرِ :
وداؤنى بالتي كانت هى الداء ؟

فتضاحكت فى رفق ، وقالت :
وإذا أصابها الإخفاق فى حبها الجديد ؟
— تبحثُ عن سواه !

— وهكذا... ١٩

— نعم ... الحب ... الحب دائما ... الحب في حياة المرأة
عنصر لا يقل خطراً عن الماء والهواء ، بل إنه ليفوقهما ... إنه
عنصر الحياة الأول ...

— إنى لأراه عنصراً من عناصر الدمار ... إنه جرثومة
مرض خطير فتاك !

— هيبه مرضا .. هيبه أى شئ آخر ... هو فى نظرى ألزم
للمرأة من أى شئ . !

— تُريدُنَا أن نكون دائماً صرعى هذا المَرضِ
العضال ؟

— إن لبعض الأمراض تأثيراً سحرياً فى النفس فتتجذب
إليها وتشغف بها، ولا ترضى عنها بالصحة بديلاً ... والحب مرض
ساحرٌ جميلٌ يضفى على حياة المرأة لونا بديعاً أخذاً ... إنه
ليدفعها إلى الأخذ بطراز رائع من العيش ، كله « رومانسية » ،
وفتة ... لن تصيب المرأة كل هذه المتع وهى مكتملة الصحة فى
رحاب الواقعية المبتذلة !

فلادّت بالصّمتِ هُنَيْهَةً ، تائهة النظراتِ حاملةً ،
ثم مهمت :

يبدولى أنك شديد الإيمان بالحب !

-- بل إني لشديدُ الإيمـانِ بأن المرأةَ لم تُخلَقْ إلا
للحبِّ ! .. إنها دُميمةٌ فاتنةٌ فياضة القلب بهذه العاطفة النورانية
الوضّاحة ... إنها ...

فقاطعتني بصوتها المنغمس الهادىء قائلة :
أتم أيها الرجال تريدوننا تماثيل « عواطف » لا أكثر ولا أقل ،
تنصبونها في أبهاء منازلكم لتفرعوا إليها إذا استبد بكم الضيق ... !
-- بل ننصبها في أعزّ مكانٍ وأغلاء قدسيّة وطهارة ...
ننصبها في قلوبنا !

إنكم لتمرثون بهذه القائل لثرووا منها نفوسكم
الصادية ، وتُشبهوا نظراتكم المنهُومة . ثم لستُخذوها
أفكوهة وسلوى ...

-- بل لنخر لها ساجدين ضارعين !
-- كلامٌ معسول ... إنَّ الأناثى لتحلُّ من حياتكم
أكبر مكان !

فأرسلتُ طيرى إليها متفحفا ، فوجدتها هادئةً القسيات ،
غارقةً في عذوبة فياضة ، وقد أسبلتُ جفنيها ؛ كأنها مقبلة على نعاس
خفيف ... فقلتُ في شبه همس :

أأعدُّ نفسى ضمن من تعين من الرجال ؟
فتخايلتُ على وجهها ابتسامةٌ رقيقة ، وتحركتُ

شفتاها وهي تقول :

وهل أنتَ إلاَّ رجل ؟

— أذكر أنى سمعتك منذُ قليلٍ تشهدين بأنَّ فى نزعةٍ إنسانية ...

فتضاحكت. واندفعتْ تعبتُ برُّ من أضرارِ معطى ... فقلت :
حذارِ يا سيدتى أن تقطعى الزرَّ . . . إن مثل هذه الأضرارِ
عزيزُ المنالِ فى الوقتِ الحاضرِ !

— لن ألحق ضرراً بمعطفك .. سأزكه لك كله .. ألم نبلع بعد
شارعَ الخليفة المنصور ؟

وتلفتتْ حولها مَلاباً، ثم مهممت :
أحسبنا قد تجاوزناه ..

— يبدو لى أن الخليفةَ المنصورَ غيرُ متعجل أن
يستنصفنا ... !

— ألا تعودُ بى ؟

— حتما ...

ووقفت السيارة ، ونزلت ...

ف قالت :

ماذا ؟

— على ربَّانِ السفينة أن يتَّبينَ مكانه من المنطقة التى حلَّ

فيها لكي يستطيع أن يعود أدراجه في أمان ...
وأدرت عيني حولي ، فإذا نحنُ على أبوابِ طريق
« الشَّوَيْس » ... وتجلَّت لي عظمةُ الصحراءِ المتراميةِ
الآطرافِ التي لا يحدها النظر ، الصحراءِ العظيمة بسكونها السابغ
ورمالها المنبسطة تحت ضوءِ الأفلاك ، كأنها بسط من اللجين
موشاةً بشمينِ اللؤلؤ ... ومصرُ الجديدةُ رابضةٌ على مرمى البصر
كأنها حيوان ضخم من الحيوانات المنقرضة في العصور القديمة دهمه
الناس ، فتجمع بعضه على بعض ...

وشاهدتُ فتاتي تتركُ السيارةَ وتقول :

ماذا تقصدين بوقفكِ هذه ؟

فتطلعتُ إليها أتأملُها لحظة ، مُعجبةً بقوامها اللدن ...
لم تكنْ بالفارعة ولا بالقصيرة ، ولم تكنْ بالبدينة
ولا بالضامرة .. عود خصبٌ ريان ، وجسمٌ متناسق التكوين ،
لا تنكر العين منه شذوذاً ولا هجنة .

، وراحَ الهواءُ يهاجمُها في عنف ، ويضرمُ الثورةَ في شعرها
وملابسها ، فانبعثتْ جامدةً تصلحُ من شأنها وهي تقولُ :
أين نحن الآن ؟

— عن كتيب من السويس ...

فصاحت :

الشَّوَيْس ؟

— أقصد أننا منها على بعد ساعتين ... !
واشتدَّ عبثُ الهواءِ بها ، فهُرِغَتْ إلى السيَّارة ، وسرعان
ما عدت حاملاً معطني وقلتُ :

أطلب إليك باعتباري طبيباً أن ترتدى المعطفَ ...
فلم تُبدِ اعتراضاً ، وساءلتها على ارتدائه ، وكان سابغاً فضفاضاً
قَهْدَلٌ كَمَاهُ على يديها . ففكرتُ في الضحك ، وهي تدور
على عقبيشها تتأمل نفسها وتقول :

ليس في الإمكان أبدع مما كان ... !

— في رأيي أنه منسجم عليك أبدع انسجام ... كأنك في لبوس
الحمامة ترسلين دفاعك على مَصَّة القضاة ، أو في جُبَّة الأستاذية
تُلقين محاضرتك في مدرَّج الجامعة !

وأخذت بيدها ، وسرنا متمهلين ، ورأيتها تطوفُ يبصرها
متوسمةً ، واستقرتُ عيناها على القمر الفتيِّ يحاول في جَهْد أن
يبدِّد حلوكه الليل وهينمت :

إن الحياة ليست كريهة كما تبدو للإنسان بعض الأحيان ...
لأنها تنطوي على جوانب لطيفة !

— هي ملأى بالسعادة لمن يريد أن يكون سعيداً ...

— وهل يكفي أن يرغب الإنسان في السعادة لكي يظفر بها؟

- نعم ، هذا رأي . وأرجو ألا أكون فيه مخطئاً ...
 - لقد حاولتُ فلم أصيبُ منها شيئاً على الإطلاق .
 - لَمْ تَكُونِ في رَغْبَتِكَ مَخْلَصَةً
 فَطَمَحْتَ بِعَيْنِهَا إِلَى ، وَقَالَتْ :

قد فعلتُ المستحيلَ . . . ثم مالت يَبصرها عني ،
 وأطرقتُ شاردةَ الفكرِ برهةً ، ولحمتُ قطراتٍ من الدمع
 تنتثر على صفحةٍ خدتها ، وألفتها بغتةً تُخْفِي وجهها في منديلها
 ثم أخذت تجفف دموعها بحلة ... وتَدَانَيْتُ منها وأنا أقولُ
 في صوتٍ رقيقٍ :

لقد حَدَّثْتَنِي الآنَ بِاتِّصَارٍ بَاهِرٍ نِلْتِهِ في معتركِ الحياة ،
 فكيف يَبْكِي القَائِدُ والنَصْرُ حَلِيفُهُ ؟
 فهمستُ بقولها :

يَسْتَوِي النَصْرُ والهَزِيمَةُ في نظري من كان مُوَحِّشَ القلبِ
 فَارِعَهُ . . . الدنيا التي تتجاوَبُ فيها الحركةُ والثَّوَرُ ليست
 فيها أَحْسَنُ إِلَّا صحراءٌ مقفرةٌ دَاجِيَةٌ
 فلا طِفْتُ يَدَهَا وأنا أَرَدُّدُ مَبْتَسِماً :

ألم أقلْ لكِ : ودائري بالتي كانت هي الداءُ ؟
 فتوهجتُ عيناها ، وقالت متهدِّجَةً الصوت :
 الخسبتُ أني ما برحتُ أحبه ؟ ... محالٌ أن يكونَ في

قلبي ذرّةً من هذا الحبّ !

وراجتُ تُرسلَ النظرَ أمامها ، وهي لا تنبِس .

وبعد حين وجدها بهمهم :

إني لا عجبٌ كيف أحببته يوماً ؟ كنتُ غريرةً
طائشةً ... استهوأتني بمعسول الأحاديث وخلاب الأمانى ،
فوثقتُ به ... وثقت ثقةً راسخةً ... وكان الزواجُ ... !
وتوالت أيامُ صفاءٍ وهناء ، وما هي إلّا أن تبعثها أيامُ محنةٍ
وشقاء ... انقلب هذا الزوجُ الصّنيّ مخادعاً أثماً متغلغلاً في
الإثم والخداع ... أصبحت حياتي معه جحيماً لا يطلقُ فيها
العيش .. ورضى أخيراً بالطلاق ، بعد أن بذلُ له في سبيله
أسمى العروض ، وهو يسرف في مساومة دلتُ على خسة وضعف
نفس ... كان هذا الذي نسّميه " الحب " ، أو على الأصحّ هذه
الجرثومة الخبيثة تنفثُ في دمي سمومها ، فلبثتُ حيناً أروضُ نفسي
على الخلاص من شرّها ، فتارةً أوفقُ وتارةً أخفقُ ، حتى لقد
عنّ لي في ساعة من ساعاتِ يأسى شبحُ الاتّحصارِ يستدّنيني إليه ،
فكدت أسقطُ بين برائته ، وقضيتُ فترةً كلها كفاحاً وعناء ،
حتى وقعت حادثة اليوم ، فكانت ختام المأساة وفصل المقال ...
ثقّ أن كل شيء قد انتهى الآن ! ...
— أو على وشكِ الانتهاء ! ...

— بل انتهى كل شيء إلى غير رجعة ، تصوّر أنى تلقيتُ
منه اليومَ بطاقةَ صغيرةً خطاً فيها كلماتٌ مُفادُها أنه مريضٌ
مشفٍ على الموتِ ، يطمعُ أن أزوّدَ عينيه بنظرةٍ وداعٍ... وقلبتُ
البطاقةَ في يدي لحظةً ... مريضٌ يلفظُ آخرَياتِ أنفاسه يدعو
مطلّفته إلى أن تودّعه الوداعُ الأخيرَ ... لستُ بالقاسيةِ حتى
أمتنعَ عن تلبيةِ دعوته في هذا الموقفِ الحرجِ ... ما زال قلبه
حامراً بحبي ... لمعتُ هذه الخواطرُ في رأسي فوجدتني أقفُ نحوَ
البابِ دون أن أفكرَ في تغييرِ ثيابي ... وصعدتُ في أولِ سيارةٍ
لقيتني ، وحثتُ السائقَ ليمضُ سريعاً إلى البيتِ ، وكنتُ في
السيارةِ وهي تعدّوني ألومُ نفسي على ما قد بدّرمني في حقهِ .
أقسوتُ عليه كثيراً ؟ ... أعاندته طويلاً ؟ ... أما كان أجدرَ
أن أصابره وألاينه ؟ ...

وصعدتُ إليه مبهورةَ الأنفاسِ ، ودخلتُ حجّرتَه ، فإذا
تظنُّ أنى رأيتُ ؟

— بمدّداً على سريره يعاني سكراتِ الموتِ .

— بل في منامتهِ الحريريةِ الأنيقةِ يتوسطُ حجّرتَه ، مشرقَ
الطلعةِ يتوقّدُ مراحاً وبقفلةً ، وعن كُتبٍ منه مائدةٌ تتزاحمُ
عليها أكوابُ الشرابِ وصحافُ الطعامِ ، وتقدّمُ منى ثملاً يتخلعُ
والكأسُ في يمينه ، وقال لي :

« ما قد حضرت .. » ، ووقفت مصعوقة لا أبدى حركة ،
ولا ألفظُ حرفاً . واستأنف قوله :

« اجلسي : اجلسي ، إنك بمجودة . ما أشدَّ حبك لي ا .
ولما وجدني جامدةً في مكاني أنظرُ إليه مأخوذةً اللَّبَّ . اقترَبَ
مني وأمسكَ يدي ، وأقبلَ عليَّ ، وأحسستُ أنفاسه المخمورةً
تصافحُ وجهي ، وفه المتدلي يتداني إلى في ووجدتني بغتةً وقد
ارتفعتُ يدي وأهوتُ عليه بصفعة اختلجَ لها وترنَّحَ وطارتُ
الكأس من يده ... وحدَّجته بنظرةٍ ذكراء ، وصحَّتُ به :

« إني أكرهك ... أمقتك ... من تظنني أيا النذل ؟ »
والثفتتُ إلى ، وكأن عينها بقعنا دم فائر ، وقالت :
أقسم لك إنه لو كان معي حينئذٍ سلاح لقتلته شرَّ قتلة ... لقد
خرجت أعدو من مسكنه لا أكادُ أستبينُ طريق ، وصادت
سيارتك فدخلت فيها على الأثر ، ثم انكيتُ على يدي أبكي ...
وأبكي ... وأبكي .. وتخاذلت قواي ، وخدِرت أعصابي ،
وأحسستُ بالغفوة ، تسرى في أوصالي ... :

وسرتُ معها جنباً إلى جنب . دون أن تتناقل الحديث . وبعد
هنيهة أقيتُ عليها نظرةً فإذا هي تعبتُ بين أصابعها بحليلة
مشبوكة في صدرها ، فهمشتُ :

حلية لطيفة ا

— لا بأسَ بها ...

وخلعتها وناولتني إيّاها ، فأخذتُ أرددُ فيها النظر ، وكانت
حليّةً ذهبيةً نقشَتْ عليها صورة أبي الهول ، وتحت الصورةِ
بضعُ كلمات لم أستطعَ تبيّنها . فقالت :

مكتوبٌ فيها : « تذكّارُ المتطوّعاتِ الملائِيا ، ... لقد
منّحتني هذه الحليّةَ لجنةُ فتاةِ النيلِ تقديراً لعملي في جمعِ التبرّعاتِ .

— أكنتِ فيمنَ يحمي من التبرّعاتِ ؟

— جمعتُ وحدي مائتي جنيهٍ !

— كثيرٌ ما حاصرَتني هؤلاء المتطوّعاتُ وسَلَبَنِي ما في

محفظتي من نقود ... أكنتِ من هؤلاء السارقَاتِ ؟

— يجوزُ !

— بل أو كذّ ذلك ... !

— كيف تؤكّدي ؟ ...

فصمتُ برهةً ، وأنا أحدّقُ أمامي ، وقلتُ في لهجةٍ ليّنةٍ خافتةٍ :

على أيةِ حال ، أشعرُ شعوراً قوياً بأنك سلبتِني شيئاً !

— أتعني محفظتك ؟

— بل شيئاً أغلى وأعزّ ...

ورنوتُ إليها ، فرأيتُ ابتسامةً هادئةً ترفُّ على عيّاها ،

ومدّتَ يدها إليّ ، وقالتُ :

هاتِ الحليةَ ...

فناولتها إياها ، فشبكتها في مكانها من صدرها ، فقلت :
يظهر لي أن كلاً منّا مهمٌّ بالملايا ... إن هدفاً من أهداف
الحياة قد بدأ يجمعُ بيننا ويؤلف ... !
فعدتْ تعبتُ بحليتها ، وهي تقولُ :
إن للملايا جرثومة أرجو يا صديقي الدكتور أن نكون
بمنجاة منها ! ...

فألقيتُ نفسي أندفع قائلاً :
لقد كشفَ الطبُّ حديثاً أن جرثومةَ الملايا فضلاً في القضاء على
جراثيم بعض الأمراض المستعصية ...
فأجابتْ خائضة الصوت وهي تنظرُ في حليتها وتعبتُ بها :
أتظنُّ أن جرثومتك الخاصة بالملايا قادرة أن تقضى على
مرض عضالٍ كاد يودى بحياة ؟ !

— إنى باعتباري طبيباً تعمّقتُ في دراسة هذه الناحية ،
وباعتباري أيضاً صديقاً تنطوى جوانحه على إخلاصٍ وثيق ،
أقولُ والأملُ ملء قلبي :

سيتحققُ ذلك بلا ريب !

فرفعتُ عينها إلى ، فلبحتما نديتين ...

— ۸۷ —

فأخذت يدها بين كفيّ وجعلتُ الألفها، وعيناي لا
تفارقان عينيها ...
وآشابهتُ نظراتنا وقتاً ، ونحن صامتان ...
وإذا بي أميلُ بعمى على يديها ، فأودعهم — اقبله حافلة
حري ... !

حُكَّام من السماء

ماذا يكونُ مِنْ أمرِ العالمِ لو خلا من الرجلِ وانفردت
به المرأة ؟

وماذا يكونُ من أمرِهِ لو خلا من المرأةِ وانفردَ
به الرجل ؟

طُلبَ إلى أن أجيبَ عن هذا السؤالِ ، فأدرتُهُ
في خاطِرِي بَرَهَةً ، ثم شُفِلْتُ عنه ؛ فلما احتسوا نِي عالمِ
الكَرَى ، رأيتُ فيما يَرَى النائمُ أني في عهدٍ من عهودِ
الفراعنة سَحِيقٍ ، وأن أحدَ الكَهَنَةِ في «مَنْف» ، قد
أقبلَ يَقْصُصُ عليَّ حديثًا عَجَبًا . فأنا أرويه هنا كما
وَعَثَهُ سامِعِي :

قال الكاهنُ الفِرْعَوْنِيُّ :

« زَعَمُوا أَنَّهُ في غَابِرِ الزمانِ المتغلغلِ في الأزلِ ؛ حين
فرَغَ أبو الآلهةِ «رَع» ، من خَلْقِ الأرضِ ، أَلْفَهاا تَمِيدِ
ولا يَقَرُّ لها قَرَارٌ ، فأجواؤُها تَعِجُّ بثورةِ العناصرِ :
أَهْويَةٌ تَخْصِفُ ، وَخَمَمٌ تَنْفَجِرُ ، وَبِقَاعٌ تَخْصِفُ ،

وأخرى تتسامق . فاستوى أبو الآلهة على عرشه يدبر
الأمم ، وقد توجت رأسه سحوباً متألقة يبهر ضوءها
الأنظار ، واسترسلت لحنيته الشهباء على الأكوان كأنها
مظلة الأمان ، فأخذ يمشطها بأصابعه الفضية الشفافة
فتنتثر منها نجوم براقة تنهوى في السماء . وراح يسرح
بصره في الفضاء الأكبر ، حيث الكواكب المتراصة تلتصق في
خشية وتهيب .

وكان روع ، قد أقام على كل كوكب منها إلهاً من عشيرته
الذكور والإناث .

واستقرت عينه بعد طوفة شاملة ، على كوكبٍ صخري
صلد ، فصاح روع ، منادياً :
يا شتاء ! ...

فاختلج الكوكب ، وقذف بحاكمه شتاء ، بين قدسي أبي
الآلهة ، وكان إلهاً ضخم الجرم صلب العود شديد الأركان .
يلتحف عباءة ثلجية فضفاضة ويبدو على وجهه شارب غليظ
من جليد متحجر . فأمره روع ، أن يخف من فوره إلى الأرض
وأن يخمد ثورتها ويحكم أمرها ، فحنا شتاء ، رأسه إجلالا
وطاعة ، وانطلق يعدو في الأفق هابطاً إلى الأرض ، فكانت
تهتز عباءته في هبوطه ، فتساقط منها جنادل كالجبال يسمع لها .

هدير صخب .

ومسّ دشتاء ، الأرض ، وبدأ تجوّاله في مناحيها ، يخطو
خطواته الثقيلة الفساح ، ويصبحُ صيحاته المدوّية العاتية ،
فتنكشُ العناصرُ النائرة ، وتذعنُ لسلطان الحاكم المسيطر .
وتابع دشتاء ، خطوه هنا وهناك وهو يلوحُ يديه ينة ويسرة .
فإذا بأديم الأرض يغشاهُ البياض ، وإذا بهذا البياض يتكاثرُ
ويتكاثفُ طبقات بعضها فوق بعض . ودشتاء ، يوالى سيره ،
وقد ساختُ قدماء الضخمتان في هذه الطبقات . وأراد أن يركنَ
إلى مكان يستقرُّ فيه بعد أن اطمأنَّ إلى أن الأرض قد خمدتُ
ثورتها وشاخَ فيها الأمنُ والسكينة . فطوّفَ بيصره حوله ، فآلني
قمة جبل شاخ فتميزة بين قمم الجبال ، كأنما أعدتُ لتكونَ
عرشه المختار ، فتسنّمها وجلس عليها جلسة الفاتح المنتصر .
وطال مُكثته على رأس الجبل لا يبدى حراكاً ولا تطرفاً له
حين ، على فمه ابتسامة ثابتة جامدة ، ابتسامة زهو وكبرياء ...

وتقضتْ منونَ من الأحقاب لا ندرِك مدّاها ، ورزحَ
على الأرض صمتٌ راكذٌ موثس ، وأظلتها عتمة كداه موحشة ،
وانكشيت الأرضُ متقلصةً مقشعرةً كأنها تريدُ أن تحتفى من
ذلك الزمهرير الذي ضربَ عليها رواقه ، واختلجتُ اختلاجةً
شديدة ومهمتُ :

إنه الموت ... الموت الوشيك !

وعلى حين فجأة ، نادت من الأرض صبيحة توسل وضراعة
إلى أبي الآلهة «رع» ، تبتهل أن يرحمها ، وإلا كان القضاء مصيرها
وكانت الصبيحة تطوى على جزع اليأس الذي سُدت في وجهه
منافذ الرجاء ، فرق لها قلب «رع» . وأوحى إلى «شناه» أن يرتد
إلى كوكبه الذي كان حاكما عليه من قبل ، فسرعان ما أطاع
الإله أمر مولاة ، وغادر الأرض يخترق الآفاق مجلجلا
تهتز عباءته الناصعة الفضفاضة فتساقط منها الجنادل تدوي
وتهدر .

وطوف أبو الآلهة «رع» بطرفه لحظة في اللأنتهاية الأبدية ،
ثم استقر على كوكب كان يتألق بنور مندي ، فصاح منادياً :
يا «صيف» ، ... !

وفي طرفة عين كانت بين يديه غادة هيفاء رائحة الوسامه ،
كأنما صيغ قوامها اللدّن من لؤلؤ رطب ، يتدوّج عليه خصلات
شعر أملس حالك ، يتضوّع منه نسيم رضى فواح . قراءته
على وجه أبي الآلهة بسمة رضا واطمئنان . وهينم :

أنت خير من يحكم الأرض !

فأقبلت عليه «صيف» ، تتهادى في رفق وخشوع ، وانحنّت
على يديه ، ومسّت بشفتيها المتقدّتين كالجزر أطراف أنامله

الفضيَّة الشفافة ، فما أسرع أن أحسَّ الإله الأعظم انتفاضة
هيئته تسري في أوصاله ، فتحأما عنه مُتلفظاً وهو يقول :

حسبك يا صيف ... اهبطي الأرض بسلام !

وحلَّتْ ، صيفُ ، على الأرض ، وبدأت تجـولُ على
أديمها في رشاقةٍ ولين ، تنقلُ خطاها وئيدة مترففةً ، فتطلعتُ
إليها شواخ الجبال بهاماتها الثلجية مأخوذة مسحورةً ، وما
هي إلَّا أن تسابتْ ذائبة من روعةٍ تلك الفتنة التي لم يكن
للأرض بمثلها عهد .

وواصلتْ « صيفُ » سيرَها ، وهي تنسطُّ يديها مرة بعد
مرة في هوادةٍ ولطف ، فإذا بالأزاهير تكسو أديم الأرض
قاضرةً بهيجة الرِّواء ، وإذا العتمة الكنداء الموحشة تلوذُ
بالفرارِ أمام أفواج من باهر الضياء ، وإذا الماء جداولُ تهجوسُ
خلال المروج الخضر ، وإذا الأشجارُ تهدلُّ أغصانها وتورق
حافلة بأطيب الثمر .

وابتهجت الأرضُ بهذا العهد الجديد ، فما لبستْ في غابرها
البعيد حلةً بهيةً كالتي تبدؤ فيها اليومَ وتطلعتْ العناصرُ متشوفةً
إلى محيِّد صيفٍ ، تمتلئُ جمال هاتين العينين الحالمتين تشيعُ فيهما
الوداعة والصفاء .

فأما « صيفُ » ، فقد اطمأنتْ بهذا الفوز الذي نالته ، فقصدتْ

إلى خيمة ظليلة وأعدت لنفسها فراشاً من الرياحين، واضطجعت عليه ، فأخذتها غفوة هادئة، وكانت تردد في نومها أنفاساً حارة تنبعث من حولها فتذهب منتشرة في شتى الأنحاء .

وطالت غفوة صيف ، مئين من الاحقاب لا يدرك مداها ، وهذه الانفاس الحارة المتلهبة ما تبرح ساوية لا يجبو لها أوار . ورزح على الأرض ركود خائق ، فأخذت الأشجار تصوح ، والأزاهير تلوى ، والماء يتبخّر من وقدة القبط . وأقبل الجفاف ... الجفاف القاسي يحصد بمنجله كل نبت ، ويمتص عصارة الحياة في كل صقع ، فاستحالت المروج الفيحاء ياباً بلقماً ، فعلى مسد البصر صحارى ممحلة تتصاعد من رمالها أبحرة لائحة ... وئمة الصمت ... صمت مرهوب يتجلى فيه الفناء ... وأطلت العناصر من شقوقها لاهثة عطشى . ولم يبق من ذلك الفردوس الغارب إلا تخيلات ثلاث تجعدت بشرتها وانكششت فطاطات هامتها تظلل صيف ، بسعفها اليابس المصفر . وبين الفينة والفينة تروح وجه الإلهة الحسناء المسترسلة في نومها ووجهها ينلظى .

وصاحت الأرض تسغيث بأبي الآلهة ، ضارعة إليه أن يشقذها من ذلك السعير ، وأن يرد عنها حكم تلك الإلهة الكسول التي لم تحسن من فنون الحكم إلا أن تضرم النار ثم

تنام حَالِمَةً ... ١

واستشاط أبر الآلهة غضباً ، واهتزت لحيشه الشهباءُ
المسترسلة على الأكوان ، فقصفت الرعود ، ولتمعت البروق
وتهاوت الشهب . وعجيب رَع ، لهذا الكوكب الأرضي
الذي لا يَرْضَى بحال ، وخشعت الأرضُ فرعاً من نِقْمَةٍ
أبى الآلهة ، وانعقد لسانها لا يَنْبِيسُ ... فنادى رَع ، :
يا دشتاً ، .

وأمره أن يحل من ساعته عل دصيف ، ويستأنف
على الأرض حكمه الجبار ...

وهبط دشتاً ، الأرض ، وقد نفش حوله عبادته
الثلجية وقتل شارب الغليظ المتحجر ، فخوراً بياها
بتلك الثقة التي أولاه إياها رب الأرباب . وجعل يحوب ذلك
القصر الرحيب بخطاه الثقيلة الصلبة يتلفت ذات اليمين
وذاة الشمال ، باحثاً عن تلك الإلهة التي طاشت في أرضه
فساداً ، فهذمت ما بنى وخربت ما عمر . ومضى في
تجنوآله وقد لفحخته شدة الهجير ، فألم برأسه
صداع ، فهمهم :

ألا سحقاً لهذه الإلهة التي تدعى دصيف ، ... إني لأجد لها
أثراً ، لقد خشيت بآسى ، فوكت هرباً !

وأطلق قهقهة راعِدةً ، فأسرَّع أن تجمَّعت في السَّما
غِيمةٌ جعلت تنكاثفُ ا
وبينما هو في طريقةٍ وقد أجهدهُ السَّيرُ ، إذ تراءتْ له كومة
من السَّعَف اليابس ، فصاحَ بها :
ماذا أنت ؟

فاشرأبت النُّخيلاتُ الثلاث المِجَافُ مذعورةً ،
والنَّوْمُ يتطايرُ من أجفانها ، وقامت في جُهدٍ وإعْياءٍ تحاول
أن تُقوِّمَ أودها وتأسِّمَ شعَّها ، وتستقبلَ تلكَ الهبَّةَ
الباردة التي أقبلت من حيث لا تدري ، وكانت الغيمة المتكاثفة
قد أخذت تتلبَّدُ ويتساقطُ منها رذاذ .

ووقف « شِتَاءٌ » يُحدِّقُ ، فإذا بحسناءٍ ممدَّدة على
هَشِيمٍ ؛ يُغطِّي جسمها خصللاتُ شعْرِها الأملَسِ الحالكِ ،
وهي مستغرقةٌ في سُباتٍ عميق ، ووجنتاها تتقدَّدانِ بِحُمرةٍ
قالية ... وهمَّ « شِتَاءٌ » أن يرسلَ صَبيحةً يبعثُ بها تلكَ
الناعسةَ من رقادها ، ولكن الصبيحة ارتدَّتْ إلى حلقه ...
وطالت وقفتُه حيالها ، وهو يرمقُها متوسِّماً ، .. ودبتْ
الحيرةُ إلى قلبه ، واتَّابه قلقٌ ، ورأى أن يسْئَلَ ، ولكنه
وجد غادته تحركُكُ أهدابها ذَوَاتِ الظَّلَلِ ... وما هي
إلا أن تطلَّعتْ « صيفٌ » وهي تقول :

— ٩٦ —

من ذا الذى جاء يُقْلِقُ راحتي ؟
وتقدّمَ دُشَاءً ، خطوةً ، وهو يُردّدُ فى أدب
كبير :

عفوك ... عفوك .. لم أقصدُ أن أزعجَكَ من
منامِكَ ... إذا رَغِبْتَ فى أن أُنْصِيَ عَنْكَ أطمعتُ
من فُورى !

— من أنت ؟ وماذا تريد ؟

وكان لصوتها غُتَّةٌ فائِزَةٌ تبعثُ فى النفسِ الأحلامَ
العذابَ . وأحسَّ دُشَاءً ، بالفاظِها تنسربُ إلى حنايا نفسه ،
فتُورِثُه شينا من التخاذُلِ . فقَبَضَ على شارِبِه بِحاولٍ أن
يَفْتِلِه ، لِيَشُدَّ من عزمِه ويُنْعِثَ القُوَّةَ فى كِيانِه ،
فوجد ذلك الشاربَ الضَّخْمَ المتحجِّجَ قد تراخى هزيلا
يتصبَّبُ قطرات ... واضرته رِيشة زلزلت أركانَه ،
ونظر إلى دُصيفٍ ، فوجدها تتمطَّى فى استرخاء ، ويتَضَوَّعُ
منها شذأ طيِّب ، وسَمِعَها تُردّدُ :

من أنت ؟ ... وماذا تريد ؟

ورأى نفسه يندائى منها ويبحو ، ثم يقول بصوت
حسنون :

إني دُشَاءٌ ... جئت أونسُ وَاُحْدَتِكَ !

وأخذ يدها يُعينها على النهوض ، فرئتُ إليه بِسَامةِ
 الثغرِ في تدلُّلٍ وإغراء . ثم أسبلت جفنيها وقالت :
 جميلٌ منك أن تؤنسَ وحدتي ...

وأدركَ « شتاء » ضعفٌ بالغ ، فقرَّعَ إلى شاربه يستمدُّ منه
 العون ، فلم يجدْ له من أثر . وإذا به تسائلَ على الأرض وتجمعت
 من ذوبه بركة صغيرة ، راح « شتاء » يتأملها حيرانَ دهشاً ، فأبصر
 وجهه وقد استحال وجهاً صبيحاً أمرَدَ يزهو قوةً ونضارة .. وسمع
 « صيف » تقول :

كنتُ أعلم أن « شتاء » شيخٌ أشيبٌ ، ولكنني أجدُك قى
 في مِيعَةِ الصبا !

وتلَّعُمُ « شتاء » فهمهم بكلماتٍ متقطعة ... وأراد أن يدنو
 منها ، ولكنه أحسَّ عباءته الثلجية تذوبُ ... ياللهول ! ... إن
 كساءَ الوحيدِ يزولُ عنه ... وبان صدره العريضُ ، وانكشفتْ
 ساقاهُ المكتنزتان ، فانتابه جزعٌ ، وأخذ يتشبَّثُ بما بقى من
 عباءته المتزايلة ليسترَ نفسه .

وأطلَّت العناصرُ من أوكارها ، وحَفَقَتْ تهاوسٌ ويتسمُّ
 بعضها البعض ، وترنحت النُخيلاتُ الثلاث من طربٍ ... وازدادت
 حيرة « شتاء » ، وكثرت لفته حوله لا يعرفُ ماذا يصنع ؟ وإذا
 بـ « صيف » تقولُ في صوتها الأغن :

لا عليك ... اذن منى لآخفيك بشعري عن مرمى
الميون !

وسرعان ما نمت حشيتة خضراء نضيرة مكان ذلك الحشيم
الذي كانت تتمدد عليه ، صف ، ... واستجاب لها « شتاء ،
فاقترب منها ، فددت إليه ذراعيها ، وأمسكت بيديه ، وهممت
تقول :

شدما أنت مقرر ... توسد صدري لتنعم بدفء طيب !
ولم يملك « شتاء ، إلا أن يذعن لما شاءت ، ووضع رأسه على
صدر الحسناء ، فسدك عليه خصلات شعرها القينان ... وتلاقى
الوجهان ، وتشابكت النظرات ، وما أسرع أن غابا معا في قبة
أغلب الظن أنها لبثت عصوراً متطاولة !

وترادفت مثنون من الأحقاب وعاد للأرض زخر فها القاتن ،
لجأت الأنهار ، وتجاوبت البساتين بالأغاريذ ، وسرى النسيم
في الأجواء أريجاً عطراً ، وانطلقت العناصر تنغني وتراقص ،
وأشرقت على الأرض ابتسامة رفاقة ؛ إذ كانت تزهو بحلة
قشبية رائعة ...

وكان « شتاء ، و « صيف ، يسيران جنباً إلى جنب ، وكل
منهما آخذٌ بخنصر صاحبه ، وهما يطوفان في تلك المروج السعيدة
يقطفان الأزاهير ، ويميلان على الغدران يرشفان خمر المحبة

والهناة... وكان يدرج حولها طفلها الوضيان : « ربيعٌ ،
و « خريفٌ » ،...
فأما « ربيعٌ » ، فعنداء ذات عيونٍ خضر تجمعت فيها
فتنةُ الزهور .

وأما « خريفٌ » ، فإنه قى ذو شعر ذهبي وهاج .
وطال أمدُ هذا النعيم ، فحسبت الأرضُ أن ذلك خلده ليس له
منتهى ، فأخذتها العزة ، وركبتها الخيلاء ، فطفقت تتطلع إلى
الكواكب تياهةً تتعالى عليها بضحكاتها ، وترشقها بسُخرياتها .
ودبت الغيرة في قلوب تلك الكواكب وكثرَ بينها الحمسُ ،
حمسُ التآمرِ والكيدِ ، إذ عزَّ عليها أن تستأثرَ الأرضُ الغانية
بهذا النعيم المقيم الذى هو من خصائص العالم الباقي . ثم أرسلت
الكواكبُ من يوسوس بالوقعة في أذنِ أبى الآلهة « درع » ،
فتعقدَ جيئه غضباً ، ورمى الأرضَ بشظيةٍ من نظراته المتأججة ،
وهو يدَمدمُ :

تباً لهذه الأرض التى لا تلقى الأكوان منها إلا العناء !
وزلزلت الأرضُ زلزالها من هول تلك النظرة ، وكادت
تبعثرُ أشلاءً .

واستطرد أبو الآلهة يقولُ :
كيف عنك أن تستمتعى بهذا النعيم الدائم وتجعله خالصاً

لك في عالمك الفاني ؟ أما علمت أن الفردوسَ الخالدَ إنما هو
وقفٌ على العالم الآخر ؟

ثم التفت إلى « صيف » و « شتاء » قائلاً لهما :

أما أتما فلي « ممكاشان أي شأن »

لجنا الإلهان على ركبتيهما غاشعين ...

وانبعثت الأرضُ صارخةً موكولةً ، تلتمسُ الرحمة .

ولكن « رع » لم يُلْقِ لضرعتها أذناً ، وازدادت الأرضُ

نحيباً ، فانهملت دموعها طوفاناً دفاقاً كاد يأتي على أرجائها

جميعاً ، وترأت العناصرُ على الأمواج مجودةً يكاد يذكركها

الفرق ... واضطرب « شتاء » أن يحمل « صيف » على

ساعدينه يخرُ بها العُبابَ ، على حين تعلقت « ربيع »

و « خريف » بمنكبيه يرجفان ... وظل الماءُ يتعالى حتى

بلغ صدر « شتاء » والأرضُ ما برحت تنحب وتضرع ،

وازداد الماءُ علواً حتى لامس دقن « شتاء » ، وكلت يداها ، وأحسن

بقدميه يُصيهما الخورُ . فانطلقت من حلقه صرخة استغاثةٍ

حررى وقال :

يا أبا الآلهة ... إننا أتباعك المخلصون ... إننا أبناءك البررة

فلا تدعنا فريسة للهلاك !

والتقى « رع » ، نظرة عاجلةً ، فبصر به « صيف » وهي مددة

— ١٠١ —

على ذراعَيْه دِشَاء ، بقَوامِها اللؤلؤى الرَّطْبِ تَكْسُوهُ
خصلاتُ شعْرِها الحالكِ الأملَس ، وهى رَسل إلى أبى الآلهة
نظراتِ توسل واسترحامٍ من عَيْنِها الناعسة ذاتِ الأهدابِ
الطويلةِ السود ، وقد بدا على عِيَّها شحوبُ الإعياء ...
وحك أبو الآلهة رأسَه بإصبعه ، فانتفش شعرُه ، فما أسرعَ أن
توهَّجت قبة السماء !

أخيراً رَقَّ للأرض قلبُ دَرَعٍ ، ... فقال لها :
كنىَ نحيباً .. لو تركناكِ تذرَفين دمعك المhton لعم الفضاء
طوفان طامٍ مَوَّاج !
ولجأةً أخذ الماءُ يفيضُ على وجه الأرض ...
ونطق الإلهُ الأعظمُ بِحُكمه :

رضينا أن نسلِمَ زِمَامَناكِ أَيَّتُها الأرضُ إلى هؤلاء الآلهة
الأربعة : شتاء ، فربيع ، فصيف ، فخريف ... على ألاَّ يحدث
بينهم اجتماعٌ في زمانٍ واحدٍ كما حدث ، فابتلوا الأمر متعاقبين ،
لكلٍّ منهم نوبة لا يعدوها ولا تعدوه !

ومال يصره إلى الآلهة الأربعة ، قائلاً :
لقد سمعتم حُكمى ، فاكفُّوا أمر هذه الصَّخَّابة التى
لا تقنعُ بشئ ... !

وأشار بصوِّ لجانه الشمسى إشارةً الإبرام ، فأومات الأفلاك

— ١٠٢ —

إيماءة الطُّوع والإِذعانِ ...١

* * *

هَذَا مَا وَعَيْتُهُ مِنْ حَدِيثِ الْكَاهِنِ الْفِرْعَوْنِيِّ
فِي غَفَنَوْتِي .

فَهَلْ كَانَ هَذَا الْحُلْمُ إِيْمَاءً بِمِفْتَاحِ الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ
الَّذِي وَجَّهَ إِلَيَّ فِي مَصِيرِ الْعَالَمِ لَوْ انْقَرَدَتْ بِهِ الْمِرْأَةُ وَحْدَهَا
أَوِ الرَّجُلُ وَحْدَهُ ؟
لَسْتُ أَدْرِي ... وَاللَّهِ أَعْلَمُ !

ولى الله

فى أمسية من أمانى مايو المشبعة بأنفاس الربيع ،
جلستُ إلى صديقى « برهان بك » فى حديقته الفيحاء ، بمخناه
الأنيق فى الجزيرة ، تتطارح أحاديث ذات شجون .

وكان صديقى من رجال الضبط والأمن الذين تبوءوا
مناصب الإدارة فى شتى الأقاليم ، حتى أدركته سنُّ الإحالة
إلى المعاش وهو وكيل للميرية الدقهلية . فاستقرَّ به المقامُ فى ذلك
المتقن بعد طول تطواف ، وبعد حياةٍ صاخبةٍ فى مطاردة
الأشرار وإقرار الأمن فى ربوع البلاد .

وعلى الرغم من أن صديقى قد نيفَ على الستين ، فإنه
ما برح محتفظاً بطابع الجندي : قامةٌ فارعة ، وصدرٌ هريض ،
وساعدان مفتولان ، ووجهٌ يحمّله شاربان مسنونان .

وفرغتْ جفوننا من الأحاديث فى جلستنا الممتعة ، فما هو
إلا أن غشينا الصمتُ بعض الوقت ، وقد عُلِقَتْ عيوننا
بالقمر وهو يتعالى فى الأفق مزهواً السّماء ، يبعثُ بضياءه

الآلاء خلال الأفنان كأنه ذوبُ الفضة يتسائلُ قَطرات ...
ولما طاب لي المجلسُ ، وخشيتُ أن يمتدَّ الصمتُ فيسرعَ
إليّ المَلِكُ يشوبُ ما نحن فيه من صفو ، اقترحتُ على
« برهان بك ، أن يقص عليَّ أعجبَ حادثٍ وقع له في حياته
الإدارية العامة ...

فتبسّم لي الصديقُ وهو يرقبُ القمرَ هادئاً النظرات . ثم
قال :

يرى الناسُ أن حوادثَ الأجرام التي تمرُّ بنا متشابهة في
أكثرها لا جدّة فيها ولا غرابة . وقد يكونُ ذلك الرأى على
حق . ولكن بين ذِكرِ بَاقِي حادثةٍ تميّزُ عن سائرِ الحوادثِ
بمّا كان لها من طَرَافَةٍ ترتفعُ بها عن المألوف .

كنتُ آنئذٍ حَكَمَدَاراً ، لمديرية الشرقية ، أقيم في المسكنِ
وحدى ، يخدمني الثوبى « خير ، الذى رافقني في كثير من
تنقّلاتي في البلاد . وقد عهدتُ فيه الأمانة والنشاط ،
فخرّصتُ عليه وبرزتُ به . وفي يوم ما استأذنتُ في أن يتغيّبَ
نهاره وليله لشأنٍ يتعلق بعلاجِ زوجة ، وكانت مريضةً أزمّنتُ
علّتها ، وطالت شكواها .

وعاد خادمي في غَد ، يعدّ لي الفِطْطُورَ ، فسألته :

ماذا قال لك الطيّبُ يا خير ؟

— ١٠٥ —

فأبطأ جوابه لحظة وهو يتشأغل ببعض عمله ، وقال :
لم نذهب إلى طيبب يا سيدي ...
— فإلى من ذهبتَ بزَوْجِكَ إذن ؟
لجعل يُنَظِّمُ وضعَ الأطباقِ على المائدة ، وهو يقول
في هممة :

إلى الشيخ الطشطوشي ياسيدي !
— ما شأنُ الشيخ الطشطوشي بمرض زوجك ياخير ؟
— أنتَ تعرفُ ياسيدي أني لم أدعُ طبيباً إلا طرقتُ بابَه ،
وقد أرسلتني أنتَ إلى من تثق بهم من الأطباء ، مع الإيصاء بي ،
فلم أفر منهم بطائل كما تعلم .
وأخذتُ أفئتُ الحبزَ في اللبن ، وأتناولُه بما عَقَّتِي ...
سم قلت :

وهل صادفتَ بُغَيْيَتَكَ عند شيخِكَ الطشطوشي ؟
فاعتدلَ في وقفته ، وقال في لهجةٍ جدٍ يقين :
كانت زيارة موفقة ياسيدي !
فرفعتُ إليه بَصَرِي أقول :
هل شفى الشيخ الطشطوشي زوجَكَ ؟
— لقد خَفَّتْ آلام الظهر كثيراً عن ذى قبل ، ولم يبق
علينا إلا أن نزور الشيخ مرة أخرى فيمُ الشفاء ...

فتلاعبت بملعقي وأنا أصعدُ فيه النظر ، وقد سَدَحَتْ على
فى ابتسامة ، وقلتُ :

أعلى ثقةٍ أنتَ بأن زوجك استَشَعَرَتْ فائدة حقة من
هذا الشيخ ؟

فقال فى صوتٍ ملؤه إيمانٍ بما يقول :
ثق ياسيدى أن لهذا الشيخ قوةً خارقةً فى شفاءِ المرضى ...
الناسُ جميعاً يتحدُّونَ بكراماته !
— وأين مكانه ؟

— معتكف فى زواية على أطراف قريةٍ أبى العرائس ...
وعلمتُ أن القرية تنأى عن العمران ، فيها وبين « الزقاقى » ،
حيثُ أنا مقيمٌ ، ثلاثُ ساعات : فى السيارة نصف الطريق ،
وعلى الرُّكوبة نصفه الآخر .

وفى مدْخَلِ الليل ، وأنا أدْخُنُ لفاقى بعد أن تناولتُ
العشاء ، أخذَ خادمى « خير » ، يَرُوى لى أشتاتاً من أنباء
كرّاماتِ شيخه « الطشطوشى » ، وسماحة نفسه ونبل خلاقته ،
فاستثارَ فضولى بهذه الأحاديث ، وهو يندفع لا يَمَلُّ
ولا تنفدُ له كلمات ، وأنا أستطيعُ حكاياته وأنباءهُ وأستعبده ؛
إذ كنتُ مشغوفاً بدراسةِ نفسيَّاتِ الشُّذَّاذِ من الناس فى
هذا المجتمع ، ولِى ملاحظاتٌ وإحصاءاتٌ شخصية أستلهمُ

في شأنها تجاربي .

وقلت لحادى ، خير ، أخيراً :

متى تزورُ الشيخَ زيارَتَكَ الثانية ؟

— يومَ الخميس المقبل ياسيدى ...

— ربما صحبتك يا خير ...

فنظر إلى نظرة حيرة وتساؤل ، قائلاً :

سلمت يا سيدى ... هل لك عنده طلبسة ؟

فابتسمت ابتسامة إشفاق ، وقلت :

لا يخلو الجسمُ من علةٍ يا خير ...

— أبشركَ بأن الشفاء سيتحققُ على يديه !

— سأجربُ طبَّ شيخك في علاج قدسى ... أنت تعلمُ إلى

أشكو التواءً خفيفاً فيها ...

فقاطعتى ، خير ، قائلاً :

من جرّاء الحادث المعروف يومَ خرجتَ تطاردُ نقرأ

المجرمين في بعض قرى أسبوط ، فسقطتَ عن فرسك ؟ ...

— الأمرُ كذلك .

— رقية واحدة من شيخنا الطشطوشى متمسح عنك الألم

لا محالة .

فنفثتُ دغان لفاقى متضاحكا ، وقلت :

- ١٠٨ -

على بركة الله !

انبلجَ صبحُ الخيس ، فصحوت مع الطير . وتنكرت في
ملابس شيخ بلدة ، وساعدني على اختفاء شخصيتي أن بشرقي
أميل إلى السمرة ...

واستأذن عليّ دخير ، فما إن رأيته حتى بدت عليه دهشة ،
فقلت :

إني لا أريد أن أكون نهب عيون الناس !

فهمهم وهو يكتم ابتسامته :

لك حق ... سعادة الحكمدار يقصد إلى الشيخ الطشطوشي

ليعالجه ...

وخرجت أطلب الطريق إلى السيارة ؛ فاعترضت عيني
كومة ملسفة في السواد لا يبدو منها إلا عينان تومضان وميضاً
مضطرباً ... فربتُ كتفها ، وقلت :

كيف الحال يا حاجة ؟

فتمنعت الكومة عن صوت هزيل مرتجف ، يقول :

الحال على ما يرامُ ببركة الشيخ الطشطوشي !

ثم جعلت تتمُّ بأدعية وصلوات .

وجاء دخير ، فأخذ بيد زوجته وتبعاني إلى السيارة فصعدنا
فيها جميعاً . وأبت الكومة إلا أن تقنع أَرْضَ السيارة

امامى . على حينَ جلسَ زوجها بجوارى متضائلاً منكشاً
في جلبابهِ القشيب ...

وانبشَّت السيارةُ تطوى الطريقَ ، متجهةً إلى دكفر صقر ،
والكومةُ السوداءُ امامى صموتٌ تهتزُّ كأنها صرَّةٌ ملقاة ... !
وكان يقطعُ السكونَ بينَ فينةٍ وفينةٍ حديثٌ ، خيرٌ ، في
إطراءِ الشيخِ « الطشطوشى » ، وروايةٍ ما يتناقله الناسُ من
عجائبِ الأقاويص . فهو صائمٌ الدهرِ قنوعٌ لا يَطعمُ إلا ما
يمسكُ رمقه ، ولا يدخرُ من قوتٍ ولا مالٍ ، بل يهودُ بما
يتجمعُ لديه من الهدايا والصلاتِ على من يلوذون به من
البائسين وذوى الخصاصة . وهو يعتكفُ ستةَ أيامٍ من الأسبوعِ
في زاويةٍ مغلقةٍ عليه لا يفتحها أحدٌ ، يقومُ فيها الليلَ
متهجداً يصلّى ويقرأ ويبتهل ، حتى إذا كان يومُ الخميسِ فتحَ
بابَ الزاويةِ لقاصديه وذوآره ، وجلسَ إليهم يعالجُ من شئونهم ،
ويدعو اللهَ لهم ، ويمنحُهم الخيرَ والبركات ...

وكان « خيرٌ » ، كاتباً أكملَ جانباً من حديثه نظراً إلى الكومةِ
السوداءِ فإذا بها توىءُ برأسها إيماءةَ التصديق ، وهى فى صمتها
مسترسلة ...

وما إن وصلنا إلى دكفر صقر ، حتى اكثرَينا حميراً
ثلاثةً أقالتنا تمشى الهسوينى مختربةً المروجَ والحقولَ

في لِيَّاتٍ من الطرُقِ عسيرة .
ومأ زاد من وعشاءِ الطريقِ وقدةُ القِيطِرِ : فقد آذتنا
لَفحاتُ الشمسِ ...

وكنْتُ في أثناءِ السَّيرِ أنسرحُ بِفِكْرى فيما سأصادفه عند
الشَّيخِ بما يَعْبِدُنِي في أَبْحاثِ النَّفسِ التي شغفتني حبًّا .
ولاحت لنا مشارفُ قريةٍ ، أبى العرائسُ ، فأشار « خير » ،
إلى مبْتى صغيرٍ ناصعِ البياضِ تلتفُّ به شجيراتٌ عجاف . وقال :
تلك هي الزَّاوية ! ...

واتجهنا صوبَها ، فلبحتُ زَرَافَاتٍ من الناسِ بين جالسٍ
بالباب ، وبين مُطِيفٍ بالزاوية ، وبين مُنصرفٍ عنها
أومقْبِلٍ عليها ...

ونزلنا عن المطايا ، وخطونا إلى البابِ ونحن نفسحُ لنا
منفذاً بين الجمعِ ... واستطعنا أن تَاجِ الزَّاويةَ ، فإذا برحبتِها
تزخرُ بالقصائدِ والأتساعِ . هؤلاء أشياخُ يتحاملونَ على
عكازاتهم في مَشَقَّةٍ وعناءٍ ، وتلك نساءٌ يحملنَ أطفالهنَّ
المهازيلَ في تَلْهُفٍ وحننٍ . وأولئك ضروبٌ من الناسِ ، هذا قد
هصبَ بِمَنْدِيلِهِ رأسَهُ ، وذلك قد لفَّ بِالصَّهَادَاتِ ذِرَاعَهُ ، وهذه
تَسْبِيلُ على عينيها الرُّمداوينَ خمارها تحاولُ شقَّ طريقِها
فتتخبطُ ... ولم يرُ عني في ذلك كله إلا مَسْحَةَ البِشْرِ والأملِ

تفيضُ بها تلك الوجوه التي قدِمت تلمسُ البُراء من أدوائها ،
أو لتوفى بالنذرِ جزاء ما لقيست من شفاء .

وكان المكان رطاباً شحيح الضوء ، أحسست فيه بردَ
الراحة من لفحات الطريق . وعلى الرغم من تكاثر الناس
فيه وازدحامهم به كانت تغشاهُ سَكينةٌ طيبةٌ وهدوءٌ محبَّبٌ
يبعثان في النفس أمناً وطمأنينةً ، فلم يكن يطرقُ سمعى في
الزاوية إلا همهماتٌ يلقى بها بعضٌ إلى بعض في تهيُّبٍ
وخشية ، وإلا دعواتٌ إلى الله أن يمدَّ في عُمر الشيخ ويديم
على السائلين نفعاته الزاكيات .

وكان « خيرٌ » ، وكومته السوداء يتقدَّماني ، فما إن مشينا
بضعَ خطواتٍ حتى انفرجتُ شُفرةٌ رأيتُ فيها قبراً ظاهراً
برز منه شاهدٌ بعمامة خضراء ؛ وعن كُتب من القبر مصطبةٌ
يترجّع عليها شيخٌ يرتدى البياض الناصع ، كبيرُ العمامة فضفاضٌ
الجبّة في يده مستبحةٌ غليظةُ الحبّات تملأ حجراً ... وكان
صبيحُ الوجه ، برّاقَ النظرات ، تهدّلُ لحيتُهُ الشهباء على
صدره في مهابةٍ ووقار ...

وتدانيّنا من مجلسه بخطأ هينات ، ثم اتخذنا مكاناً على
مقرّبة منه نرتقبُ نوبتنا في الجلوس إليه ... وغمز لي « خيرٌ » ،
بعينه يشيرُ إلى القبر ، وهمسَ في أذني يقول :

إنه مَثَابَةُ الشيخ ... يقضى في غيابه جُلَّ وقته ...
وبقيت لحظة متعجباُ أردد النظرَ بين الشيخ والقبر ... وبعدَ
قليل وجدتني أركزُ بصرى في وجهِ الشيخ، وأحليلُ التحديقَ
في عينيه ...

وأطرفت أسأَلَ نفسى :

ألى بهاتين العينين سالفُ عهد؟

ثم رفعت بصرى أعاودُ التحديقَ في وجه الشيخ . ووجدتني
ألتفتُ حولى ، فأرى أتباعه قد تعلقَتْ نظراتهم بوجهه كأنما
وصلتهم به أسلاك ... وقد كانوا يُرهفون إليه السَّمْعَ فأغرينَ
أفواههم في تطلع واختلاب ، والشيخ يلفظُ كلماته رخيةً في
غُنة عذبة وهو برّ في مرضاه ويمسحُ على رءوسهم في تحنٍ
وإشفاق ... وبين حينٍ وحينٍ ألحظُ يده قد امتدت في مسارقةٍ
إلى قاصديه المعوزين يبرهُم بالعطايا في صمت وسكون ...
وعدتُ أنطأُ إلى الشيخ أرقبُ نظراته الثواقبَ ، وامتدَّ
بى التطلع والارتقَابُ ، وشرَدَ ذهنى يتصفَّحُ سِوَالفَ
الذكريات ...

وبغته سمعتُ الشيخ يقولُ :

تقدّم ... ما عليك بأس ...

وأقبلتُ عليه ، واتخذتُ مجلسى قبالة ... وتلاقَتْ نظراتنا ...

ولبثنا وقتاً يرنو كل منا إلى صاحبه صامتاً ... أئمةً اختلاجة
طرأت على قسبات وجه الشيخ ؟ ... وشاهدتُ ابتسامة خفيفة
تعبّر فيه ... أهي ابتسامة غامضة يحاول بها الشيخ إخفاء
بعض مشاعره ؟

ورجعتُ إلى نفسي أسألهما :
أعلى يقين أنا من أني لم أشهد هذا الوجه قبل ؟
وأنهتني غمزة غمزني بها « خير » يشيرُ إلى أن أتقدم ...
وسمعتَه يقول للشيخ :

إن صاحبي يشكو قدمته ، وقد جاءك يلتمس الشفاء على يدك ...
ومددتُ للشيخ قدمي ، وأنا أهمهم :
منذ أعوام سقطتُ عن فرسي بسقطة ما زلتُ أجدُ المَها
في قدمي حتى اليوم ...
فدَّ الشيخُ يده ، وتتم قائلًا :
ستُشفى يا ذن الله ...

ثم شرع في رقيته هادي الملاح في صوته الأغنَّ المعبود ...
وما إن انتهت رقيته حتى قال في نبرات واضحة :
الشفاء منك قريب ، والله على كل شيء قدير ...
ثم أسبل جفنيه ، وكأنما قد غشيه سبات ... فجذبني « خير » ،
وهو يقول :

ضع تحت منديل الشيخ ما تجود به نفسك . . .
 فأخرجت قطعة من النقود، ودفعتها تحت ذلك المنديل الأحمر
 المبسوط عند قدمي الشيخ . . . ونهضت إلى الباب تاركاً د خيراً،
 والكومة السوداء يقضيان مأربهما عند شيخ الزاوية .
 وخرجت أتقياً ظل شجرة اجتمع تحتها الغيف من زوار الشيخ
 يتحدث بعضهم إلى بعض، جلست قريياً منهم: وبادلتهم تحية بتحية،
 وخضت معهم في الحديث . وجعل كل منهم يروي لرؤفته غرضه
 من الزيارة، وما أصاب على يد الشيخ من بركة وخير .
 وسمت نفسي إلى أن أتصرف شأن الشيخ كله، فرمحت
 أسألتهم عن نشأته وحياته، فانطلق أحدهم يروي حادثاً عجيباً
 وقع منذ عشر سنين، وذلك أنه كان غير بعيد من القرية قبر
 متهدم مهجور لولي من أولياء الله اسمه الشيخ الطشمطوشي،
 لم يكن يقصد إلى زيارته إلا نفر قليلون من أهل القرية
 وما حولها .

واتفق يوماً أن مرّ بجانب القبر فلاح مريض نهكت
 العيلة، وكان الإعياء قد بلغ منه مبلغاً، فأراد أن ينسحب
 الهجير وينعم يقسط من الراحة، فأوى إلى ظل شجرة
 خاوية عن كسب من الجدث . وما هي إلا أن سمع حركة
 تضطرب في أغوار القبر، فانتفض مذعوراً وهم بالهرب،

ولكن تخاذلت قواه ...

وسرعانَ ما أطلَّ رأسٌ من فوهةِ القبرِ ، فما كادَ رَى
الفلاحَ أمامه حتَّى اختفى في مستقرّه عائداً فيمَدَّ الرجلُ المريضُ
مذهولاً ، وأراد أن يستصرخَ فاختنقَ صوته في حلقه ،
وتسمرتْ قدماه فلم يستطعَ حراكاً ، ومَرَّت به فترةٌ كان فيها
مأخوذاً ... وسنحتْ بخاطرهِ أسطورةٌ كان قد سمعها في حدائثهِ
من عجائزِ الحَيِّ ، وهى أن الشيخَ « الطشوشى » ، يُبعثُ كلَّ
خمسَينَ سنةٍ مرةً ، وأن من يسعدُ برؤيته في مبعثته ينال ما
يطمحُ إليه هواه ... فأحسَّ بشيءٍ من الطمأنينةِ والأمنِ
يسرى في أوْصالهِ ، وتطلعَ إلى القبرِ طويلاً ، وبدأتْ شفتهُ
تحتلجانَ بالفاظٍ مضطربة ...

وامتدَّ به الوقتُ وهو يغمغمُ ولا يكاد يبينُ . ولكنه بعدَ
حينٍ ألْفَى نفسه يُرسلُ الصيحةَ عاليةً يقولُ :
يا ولىَّ الله يا ملاذِى ، فرَّجْ بحقِّ المصطفى كُرْبى !
ولبَّكَ ينتظرُ وعيناه لا تفارقان فوهةَ القبرِ ، وعاد يتضرعُ
مستنجداً في تذائلٍ وتخاضعٍ ، قائلاً :
بحقِّ المصطفى لا تحيِّبْ رجائى ، أُنلنى ما أبتغى ، وأشرقْ
بنورِ طلعَتِكَ علىَّ يا قطبَ الأقطابِ !
واندفعَ في توهُّلاتٍ متواصلةٍ في حرارةٍ وعمقٍ ، فألْفَى

القبر بضطرب | وماهى إلا أن تثابت فوهته عن وجه
الشيخ ...

وشاع الصمت برهة ، والرجل ينطاع إلى الشيخ جائئاً ...
وأخيراً تكلم الشيخ ، فقال :
ماذا تريد منى يا عبد الله ؟ ...

فهمم الرجل وقد حسر بصره :
أنلنى بركتك ، وأبرئنى من علقى ...
فتمتم الشيخ بكلمات غواض ، وقد لوح بيده فى وجهه
الرجل يمنة ويسرة ، ثم تضائل وتراجع حتى انطوى خلف
الرجام ...

فدكت الرجل وقتاً لا يريم مكانه ، ولا يحيد بصره عن
فوهة القبر ، وهو يهدف البسمع ، ولكن الصمت كان قد خيم
وشاع ...

وهم الرجل بالقيام ، فأنس من نفسه فورة قوة ووفرة
نشاط ، وإذا به يجد ألم العلة قد تزايل حتى كاد لا يكون له
أثر ... فهرول نحو القرية وقاض سره عن حنايا صدره ، فانطلق
يروى ما جرى له فى حمية وحماسة وإيمان ، حتى لقد ذهبته به
ظنون سامية كل مذهب ، وحسبوه قد مسه خيال ...
ولم تمض أيام حتى شاع فى القرية أن الشيخ ، الطلشطوشى ،

قد انبعث من قبره وتمثل للناس بشراً حياً ... وتحققت
الأسطورة في مبعث الشيخ كل خمسين سنة مرة ، فلم تتوال أيام
حتى كان القبر مزارَ الأفواج صباح مساء ، والشيخ يخرج لهم
في الفينة بعد الفينة ، يمنحهم البركة ويطلب لهم من الله تحقيق
الرغاب ... وكان بعد ذلك أن أقيم بناء الزاوية حول القبر ،
وأصبح للشيخ مكانةٌ يتناقل الناس أخبارها في القرى ، دانيها
وقاصيها ...

وما كاد عُدَّت الجمع يصلُ إلى هذا من حديثه ، حتى بدا
أمامي «خير» وزوجه وهما في نشوةٍ من الإبهاج ، تلتمع
أعينهما التامع التفاؤل والاستبشار ...
وقصدنا رباط المطايا ، واعتليناها عاتدين .

وفما كنا نقطع الطريقَ كان «خير» مسترسلاً في ثثرة
مختلطة من الأسئلة والأحاديث لم ألق لها بالاً ، إذ كنت في وادٍ
آخر من الأخيلة والتصورات ... حتى وصلنا إلى «كفر صقر» فزلنا
عن المطايا للركب السيارة ، وسألني «خير» وهو منكشٍ في
ركته ، والكومة السوداء مُلقاة تهتز بين قدميه :

ألم تشعر بفائدة يا سيدي ؟
فقلت له عن الفور وأنا تائه النظرات :
حقاً إن شيخك لرجلٌ مبارك ...

فصاح « خير » في إشراق :

ألم أقل لك يا سيدى ؟ ...

ربما كفت زيارة واحدة ، فإن لم تكف فإن زيارة ثانية لا
تدع الألم موضعاً ...

ولما بلغنا الدار وأخذت أخلع ملابسى ، تمثلت لعينى صورة
الشيخ لا تبرح ... لقد رأيت هذا الوجه لا ريب ... أين ؟ ...
متى ؟ ... وهضيت أستاذك ... أممكّن هذا ؟ ... وما كادت
تسبح الشبهة فى خاطرى حتى أقبلت على أوراق القديمة أفتش
عن مذكرات كنت أبجل فيها ما يعرض لى فى عمل من حوادث
ذات شأن ...

واندفعت أقلب الأوراق وأقرأ ، حتى عثرت على ضالتي ،
فانكبت أفتح وأدقق ، واستخرجت إضامة من الصور ،
وسبحت عيني بين محتوياتها حتى استقرت على صورة لم ألبث أن
اتزعتها من الإضامة ، ورحت أتأمل سماءها فى جدٍ وتحقيق ،
وأنا أوازن بينها وبين صورة شيخ الزاوية ...

وطال تردادى بين تصفح الأوراق ومطالعة الصورة وعرض
الذكريات وتمثل الشيخ فى مجلسه ... ١

وأهضيت أياماً لا يفتر اهتمامى بهذا الأمر ، فرأيت أن أبث
العيون فى قرية « أبى العرائس » يستطلعون خبر الشيخ ويسهبون

غوره خفيه . وكذلك أرسلت في طلب بعض ملفات من مديرية
« أسيوط » ، خاصة بمحادث « العصلوجي » ، أحد المجرمين الذين
اشتبكت معهم في موقعة دامية منذ عشر سنوات ، كان من أثرها
أن اعتلت قدماي .

وسهرت ليلالي أراجع الأسانيد وأستمع إلى ما تأنيني به العيون
من أبناء شيخ الزاوية ، وكنت كلما تعمقت في البحث قويت
ظنوني ، حتى أوشكت أن تبلغ ذروة اليقين .
وكنت بين آن وآن أسأله نفسي وأنا أستعيد في مخيلتي
صورة الشيخ :

أحق أن وجهه اختلج بعض اختلاجات حين وقع
بصره على ؟ ...

وترادفت الأيام ، فإذا بي أتى في هذا الشأن إلى رأى طبت
به نفساً ، وذلك أن ولي الله الشيخ « العطشوطي » ، وطريد العدالة
« العصلوجي » ، اسمان على مسمى واحد !

وكنت أعجب أشد العجب كيف تسنى لذلك الجاني الأثيم -
الذي نشر الفرع والرعب حقبة مديدة في قرى الصعيد أن
يسخر من عقول الناس ؟ ... وكيف تيسر له أن يفر من موطنه
ويأوى إلى تلك القرية عشر سنوات طوالا دون أن يفتن إليه
أحد ، وقد غدا قد يساً يتوسط بين الله وعباده ، يدر عليهم الخير

والبركات ؟ ...

وضربت المائدة يدي ، وقت واقفاً ، وزهو الانتصار
يتلألا في عيني ، وقد امتلأت غبطة بأنى على وشك أن أضع يدي
على ذلك الأثيم الذي طالما نشدته في كل مكان ، وبذلك أقصى
مجهودي في هذه السبيل حتى كدت أدركه ، ولكنه أفلت ساخراً
من يدي ، ولاذ بالفرار .

ودبرت الخطة التي أبلغ بها غايي ...

وفي صبح يوم الخميس أعددت العُدَّةَ لأمرى ، وخرجتُ
متخفياً في زي شيخ من مشايخ البلاد ... فلقيني بالباب « خير ،
وقال لي :

يبدو لي أنك غادٍ لاستكمال شفائك عند الشيخ ...

فقلت :

الامر كذلك ، وأرجو أن تكون هذه هي المرة التي أحتاجُ

فيها إلى زيارته ... !

— ألا أرافقك ؟

— أفضل أن أذهب وحدي ... لقد عرفت الطريق ياخير ... !

وصعدت في السيارة قاصداً « كفر صقر » ، فلما وافيتها ركبت
مطيَّة إلى قرية « أبي العرائس » ، فبلغت الزاوية في رونق الضحى ،
وحثثت خطاى نحو المبنى الأبيض حوله شجيرات العجاف ،

وتَبَيَّنَتْ عِيونِي منبئينَ في أرجاء البقعة مندسَّينَ في غَمَّارِ
الزُّوَار... ودنا مني مُلَا حَظَّ الشَّرْطَةِ في لَبَوسِ التَّنَكَّر ، وهو
يَهْمِسُ قَائِلاً :

كل شيءٍ مَعْدٌ ... ثِقَ أنْ غَرِيمَ العَدَالَةِ لَنْ يَجِدَ طَرِيقاً
إلى الخِلاصِ !

فَأَقْبَيْتُ إِلَيْهِ بَعْضَ أَمْرِي ، فَأَنْصَرَفَ عَنِّي . وَتَحَسَّسْتُ
مَسَدَّ سِي لَا تَحَقُّقَ مِنْهُ فِي مَسْتَقَرِّهِ ... وَكَانَتِ الزَاوِيَةُ عَلَى
المَأْلُوفِ تَمُوجُ بِالمُرِيدِينَ وَالأَتْبَاعِ ، أَفْوَاجُ تَذْهَبُ وَأَفْوَاجُ
تَشُوبُ . فَرَقْتُ دَاخِلَ الزَاوِيَةِ ، وَاتَّخَذْتُ مَكَانِي غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ
البَابِ أَرْقُبُ الشَّيْخَ دُونَ أَنْ تَقَعَ عَيْنُهُ عَلَيَّ ، وَهُوَ عَلَى مَصْطَظَتِهِ
مَهَيْبُ الطَّلَعِ ، تَحْفُ بِهِ جَلَالَةٌ وَوَقَارٌ ، وَأَطْلَتُ التَّحْدِيقَ فِيهِ
أَخْصَى عَلَيْهِ حَرَكَاتِهِ ، وَأَتَفَحَّصُ سَمَانَهُ ، وَعَجِبْتُ كَيْفَ
اِكْتَسَبَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْأَثِيمُ هَذَا الطَّالِبَ الرَّائِعَ مِنَ الشَّقَى
وَالْوَرَعِ ، وَمَنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ الْمَالَةُ مِنَ الْخُشُوعِ وَالْمُهَابَةِ ؟ ... إِنْ
لَا كَادُ أَنْ كِيرُ يَقِينِي وَأَكْذَبُ عَيْنِي فِيمَا أَعْرِفُهُ مِنْ شَأْنِ هَذَا
الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ الَّذِي أَعْيَا رِجَالَ الْأَمْنِ خَبْئاً وَشَرّاً ...

لَقَدْ كَانَتْ عِيونُ النَّاسِ مُحِيطَةً بِهِ كَأَنَّمَا شُدَّتْ إِلَيْهِ
بَأَمْرٍ ، تَسْتَلْهِمُ مِنْهُ الرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَلْقَاهُم
بَنَظَرَاتِهِ الَّتِي تَشْعُرُ رَحْمَةً وَحَنَاناً ، وَيَغْدِقُ عَلَيْهِمْ أَحَادِيثَهُ الَّتِي

تقطر وداعةً وطيبةً وإخلاصاً ١ ...

هاهو ذا لا يكاد يَمَسُّ بأَنَامِلِهِ مَكْلُوماً يَثْنُ من فَرْطِ
آلَمِهِ حتى يعودَ ذلك المَكْلُومُ شَخْصاً تَفْتَحَتِ الدُّنْيَا أَمَامَ
نَظَرِيهِ في نَضْرَةٍ وإِشْرَاقٍ ... وهأنذا كلما تَلَفْتُ حِوَالِيَّ
هالتي دُمُوعُ السُّرُورِ والإِغْتِبَاطِ تَفِيضُ بِهَا عَيُونُ الأَمَهَاتِ وَهَنَ
يَضْمَنُ إِلَى صَدُورِهِنَّ فَلَذَاتِ أَكْبَادِهِنَّ الَّتِي نَالَتْ من نَفْعَاتِ
الشَّيْخِ نِعْمَةَ الشِّفَاءِ ١ ...

لقد أَحَسَسْتُ أَنَّ كُلَّ قَلْبٍ في هَذِهِ البَقْعَةِ يَخْفِئُ بِالْحُبِّ
وَالْوَلَاءِ، وَيَدِينُ بِالْفَضْلِ وإِسْدَادِ الْجَمِيلِ لَذَلِكَ الشَّيْخِ الصَّالِحِ الَّذِي
يُمَثِّلُ الخَيْرَ المَحْضَ في صُومَعَتِهِ المُنْعَزَلَةِ عَن عَالَمِ الشُّرُورِ
وَالْأَنَامِ ... أَفِي مَكْنَنَةِ أَمْرِي أَنْ يَرْتَابَ لِحْظَةً في صَدْقِ
طَوِيَةِ هَذَا الرَّجُلِ وَنَقَارِ سِرِّيهِ ١ ؟

وَأَزِفَ وَقْتُ العَمَلِ المُدَبَّرِ ... فَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ من
الشَّيْخِ لِأَحْظَى مِنْهُ بِرُقِيَّةٍ تَشْفِي قَدَمِي ، عَلَى حِينٍ يَقِفُ مُلَاحِظُ
الشَّرْطَةِ خَلْفَ الشَّيْخِ فَيَنْقُضُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَتَمَتَّعُ بِرُقِيَّتِهِ حِينَ أُرْسَلُ
بِيَدِي إِشَارَةً خَاصَةً اتَّفَقْنَا عَلَيْهَا ...

وَتَقَدَّمْتُ بَضْعَ خُطُواتٍ ، ثُمَّ وَجَدْتُنِي أَتَوَقَّفُ ...
ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ سَيَرِي ... وَكَانَتْ خُطُواتِي ثِقَالاً وَبِيدَةً ، وَكُنْتُ
أَرْدُّ الطَّرْفَ حَوْلِي تَطَالَعِي دَائِماً تِلْكَ الْوُجُوهُ الْآمَنَةَ

— ١٢٣ —

المطمئنة ، وتلك الثغور الباسمة المستبشرة ، وتلك النفوس الوداعة المستقرّة ؛ فإذا بخطاى تردّادًا تنافلاً ...

والفيتنى بعد فترة قبالة الشيخ ، وهو ينظر إلىّ في هدوء ، وقد ارتسمت على فيه ابتسامة لا تخلو من غموض .

وطالت وقفتى ، وأنا حيرانُ الفكرِ ، مشقتُ الخاطرِ ، تغاليتُ الشكوك ... ولمحتُ الملاحظَ يستعجلنى في إنجازِ مهمته .

وسمعتُ الشيخ يقول بنغمته الراتبة ذات الغنة العذبة :

تقدم تقدم ...

فشخصتُ إليه بعينى ، وتلاقتْ نظرُنا وتنا... ثم أحسست بنفسى أغضت من بصرى ... وسمعته يقول :

تقدّم ... شفاؤك مكفولٌ بإذن الله !

وجلستُ أمامه ، فانطلق يتمنّى برمقته ، ويدّه تلوّح على قدمى .

ومكثتُ مطرّق الرأس ، خافض البصر ، غريقاً فى أخيلة غريبة كأننى فى غمرة الأحلام ، أسألتُ نفسى :

كيف يكون حال هذه القرية السعيدة بعد أن يرحل عنها وليها الطيّب ؟

وما إن فرغ الشيخ من رقيّته ، حتى وجدتنى أخرج

من جيبي قطعة النقود ، وأدسها تحت منديلِه المبسوطِ كما فعلت
أول مرة . ونهضت عن مجلسه متخذاً طريقاً إلى الباب ...
وما كدت أصل إليه حتى شعرت بيدٍ تجتذبي ، وإذا بالملاحظ يهمس
في أذني ملهوف النظرات :

ماذا جرى ؟ ... ماذا جدَّ في الأمر ؟
فقلتُ له وأنا أنظرُ أمامي نظرات شاردة :
خفف من حدِّتك ... الأمر يتطلَّب التريث !
وبدأنا سيرانا ، والملاحظ تضطرب زجرجته المكبوتة
على شفثيه ، فسمعته يقولُ بعد خطوات :

هذا المجرم ! ... هذا المحتال ! ... كيف نمهله ؟ !
فأمسكتُ يده ، وقد قاربنا رباط المطايا ، وقلتُ :
أشعر بأننا كنا على وشك أن نقع في خطئٍ جسيم ...
— كيف ؟ ... كيف ؟

فضغطتُ يده ، وقلتُ :
سأشرحُ لك الأمر جليلاً ...
وفطنت في هذه اللحظة إلى شيء راعني حتى أذهلني ...
إني أسيرُ على قدمي دون أن أجد ذلك الألم الذي لا زمني
عشر سنوات ... يا الله ! ... كيف فاجأني هذا الشفاء ؟ !
وَأردتُ أن أستوثق ، فجعلتُ أغدو وأروح سريع الحركة ،

— ١٢٥ —

أضربُ الأرضَ في مَسِيرِي، فاجدتُ للآلم من أثرٍ...
وكان الملاحظُ ينظرُ إلىَّ حائرًا يستبد به العجب، فألقيت
يدي على كتفيه، وقد تطلعتُ أساريرُ وجهي، وفاضتُ بالبشر
عيناي، وقلتُ له في احتياج:
انظر... لقد نلتُ من بركةِ الشيخ أوفرَ نصيب!

كَلْبُ أَسْعَدُكَ

حينما كنتُ طالباً في مدرسة الزراعة بداء الجزيرة ، كنتُ
أترددُ في أوقات فراغى على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع
العالم يتراى بجوارها جدولٌ صغيرٌ وتهْدَل فوقها أغصانُ
شجرة عتيقة ، وكنتُ أعدُّها حلقة الاتصال بين الحضر
والريف ، أو بين المدنية المزخرفة والحياة الفطرية .
فبينما تكونُ جالساً في مقعدك الساذج تشربُ القهوة
في هدوء وتصغى إلى خرير الماء ، وتتملى منظر النبات ، إذ يصطلم
سمعك بدوى ترام ، أو يُفزعُ أنفك بدخان سيارة .
وكان يترددُ على هذه القهوة رجلٌ كبيرُ الجسم كُروى
الوجه بأنف أفطس وعينين صغيرتين ، وكنتُ ألاحظ عليه
مظاهر البؤس ، فاعتقدت أنه من ذوى المعاش الفقراء ، وأذكرُ
أننى ما ذهبت مرةً إلى القهوة إلا وجدته . أراه دائماً في ركنه
المعمود بجوار الباب متفخفاً في جلسته ، يرسل على كتفيه شملة
بالية ، بين يديه القهوة يشربها والنارجيلة يدخنُها ، ولا يفتأ

يصبح في الفترة بعد الفترة بالخادم يصدرُ إليه أوامره . وكان لا يُرَى إلا مصطحباً كلباً أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت ، يزجج القهوة بنباحه الثقيل ، وكان سيده يبالغ في تدليله والاعتناء به ، ويخاطبه ببعض كلمات إنجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله : « كام هير جيمى . كام هير ماى دبر ... »^(١) ،

وكان يلزم غلام القهوة ، أن يحضر للكلب الماء في صحفة من الصُّحُف النظيفة ، ويجمع هو بنفسه بقايا الطعام مما يأكل رواد القهوة ، ويقدمها لحيوانه غير مبالٍ باشمئزاز الناس وامتعاض صاحب القهوة .

* * *

وذهبت مرة إلى القهوة فوجدت « عويس » ماسح الأحذية يتشاحن معه ، وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح ، وهو متنفخ الأوداج محمراً العينين يبصق أمامه بصقات متوالية . ورأيت الكلب ينبس الغلام بشدة ، ويجذب أطراف رذاته بأسنانه ، فتلافت التداخل بينهما ، وقصدت إلى مكاني بجوار الجدول ومعى كتاب الزراعة المصرية لاذاكر فيه .

وجاء صاحب القهوة فتحسب الخلاف وأنحى على « عويس » ،

(١) تال هنا يا جيمى . تال هنا باعزى !

وأرضى الأفندي ببيع كلبات لا تخلو من تملق ، وترك الكلب
ثوب الغلام ، وذهب إلى سيده ، فنظر إليه مليا وهو يهز له ذنبه
ثم تمدد تحت قدميه ونام .

وجاءني « عويس » حاملاً صندوقه على مألوف عادته ،
فدذت له قدمي في غير وعني . واشتغل الغلام بالمنسج ،
وأنا غارق في التفكير . وبعد برهة خاطبت « عويس » ووجهي
لا يفارق الكتاب :

من يكون ؟

فأجبنى وهو منهمك في عمله :

طبيب لا هنا ولا هناك ، يدعى أنه كان رئيس الأطباء
في الجيش في الزمن الماضي ...
— والآن ؟

— على المعاش ... تصوّر يابك أنه يريد أن يعطيني نصف
قرش نظير مسح خذائه ووضع رباط جديد له . وأى خذاء هذا
الذي أمسحه ؟ ... لا أراك الله ، أو كد لك أن الطلاء لم يمسه
منذ أن كان جنابه في الجيش !

ولا حظت على الرجل أنه يسارق النظر إلينا
شزراً ...

فأردت أن أحول مجرى الحديث ولكنني لم أستطيع ،

إذْ كان دعويس ، قد اندفع يقول :

نصف قرش واحد نظير مسحة ورباط جديد؟ .. يُغنيني
الله يا سيدى ... هذا فوق الخدمات التى أُؤدّيها له دون
مقابل . ولو كان شخصاً فقيراً لقُلنا نخدمه لوجهه الله ، ولكنه
رجل كاذب ... كاذب بلا شك ...

وسمعتُ الرجل يبصق بشدة على الأرض ، تخفف دعويس ،
من حديثه وهمس قائلاً :

صدق بالله إنك لو ذهبت إلى بيته لظننت نفسك فى منزلة
أو حظيرة هائم ... لم كل هذا والدنيا آخرتها موت ؟ ... إذا لم يتمتع
الإنسان نفسه فى دنياه فما فائدة جمعه للمال ؟ ... دعنا ياسيدى
ولنُخلق باب هذه السيرة ...

* * *

وانقطعت عن القهوة بضعة أيام ، وبينما كنت مرة فى
الترام مُهمِكاً فى قراءة "المُصور" ، إذ شعرتُ بشخص
يدخل العربة - وكانت مزدحمة بالركاب - ويحشر
نفسه بين الجالسين ، وسمعتُ مُهممة استنياى فى كل ناحية .
ورفعتُ رأسى لأرى من الداخل ، فوقع بصرى أولاً وهلة
على كلب أسود ضخم يشع الهيئة عرفته على الأثر ، ورأيت
أمام مقعدى رئيس الأطباء يمسح وجهه المخبى المعقّد ،

— ١٣٠ —

ويجذبُ الشملة هلى كنيفه ، ويدفع جاره وهو يتختمهم
ويبرطمُ ، وتلاقت أعيننا ، وشعرتُ بأنى أبتدسم له .
وشاهدته يُحييني مجاملةً بابتسامةٍ عاطفة . وبعد لحظاتٍ
قال لى مندفعاً :

يدفع الواحدُ منا ستة مليات لهذه الشركة الملعونة ليخطئ
بمثل هذه الجلسة المرهقة . أ آدميون نحن أم بهائم ؟ ... أهكذا
يخشروننا كأننا فى عربة حيوانات ؟ ... لماذا لا يريدون عربةً
على كل قطار فى مثل هذه الأوقات ؟ ... أقسم بالله إن سوارس ،
الذى كنا ندفع فيه ثلاثة مليات أحسن ألف مرة من
هذا الترام !

فواقفته ، وأخذت أنعى على الشركة هذا الإهمال ، فظهر
على وجهه الارتياح ، وانطلق يناقلى الحديث بلهجة ودية
بلا تكلف ، كأنه يعرفنى منذ أعوام ، وقال :

لم تحضر إلى القهوة منذ أيام ؟ ...

— كنت مشغولاً جداً ... لقد كبست علينا الدروس .
— والله يابنى لو كنت معنا فى الجيش لاستصغرت شأن
ما يشغلك ... كنت لا أجد الوقت الكافى لأتناول كوب
اللبن فى الصباح !
— أخذت فى الجيش مدة طويلة ؟

فأجاب بلهجة متزنة ، وهو يعيث بسلسلة ساعته :
 خدمت خمساً وأربعين سنة ... خمساً وأربعين سنة ، وأنا
 أهيش في الخيام وعلى صهوات الجياد ، أضمد الجرحى وأغشى
 بالمصابين ، ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة
 ماش لا هو في العير ولا في النغير ... لا مكافأة ولا جزاء !
 ثم مال على وهو يتنسم وقال :

ألم تسمع المثل القائل : آخر خدمة الغز علة ؟
 وكان قد خلا مكان بجواره ، فنظر إلى كلبه القابع تحت
 قدميه ، وقال له وهو يفرق إصبعه :

كلم هير جيمى ، كام هير ماى دير !
 وأشار له إلى المحل الخالى ، فهض الكلب ، وبعد أن تمطى
 وتتاب فى هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس ترمقه بنظرات
 غصبي . والتفت إلى طبيب الجيش وقال وهو يلاطف
 كلبه :

لم أر فى حياتى كلباً وفياً كـ جيمى ، هذا ... لأنه إنسان وليس
 بحيوان . لقد استعصت به عن البنين ؛ فهو ابنى ، وعن الخدم ؛
 فهو تابعى الأمين ، وعن الحراس ؛ فهو حارسى الذى يبدل دمه
 فى سبيلى . أنصددق أننى لا أعاشر فى منزلى سواه ... ١٩
 ثم نظر إلى كلبه وقال :

أوه جيمي أى لاف يوفرى ماتش^{١١}
 وكان بجواره شيخ معممٌ مستغرقٌ في تسبيحه ، فأحسَّ
 جسم الحيوان يلسَ جبَّته ، فاستيقظَ في رعدةٍ ، والتفتَ من
 فوره ، فما إن وقع بصره على الكلبِ حتى وثبَ غاضباً يلعنُ
 ويسبُّ ، وتناول عصاه فدفع بها الكلبَ يريدُ أن يرغمه على
 ترك المكان ، فرماه دأسعد بك ، بنظرةٍ ملتهبة وقال : وقد
 احتقنَ وجهه وانتفخَ :

ماذا تريد من الكلبِ ؟

— يجب أن تنزله عن المقعد !

— أنزله عن المقعد .. ١٩

— إن مكانه ليس هنا ...

— ومن حضرتك حتى تلقى هذه الأوامرَ على الناسِ ١٩

— الكلبُ نجسٌ ، وأنا رجلٌ متدينٌ ، فيجب إزاله ...

— لقد دفعت ستة ملياتٍ لأركبَ أنا وكلبي ، فلا يستطيعُ

أحد إزاله .

— إذن أنا أتولى ذلك !

ورفع الشيخُ عصاه يريد أن يهوى بها على الكلب ، فأسرعَ

١ - أوه يا جيمي ... أنا أجبك كثيراً جداً ...

— ١٣٣ —

« أسعد بك ، ونزعها منه ، ثم أتى بها في الطريق والترم سائر ، وسرعان ما رأينا الرجلين قد اشتبكا في مشاجرة اشترك الكلب فيها : فانطلق يعص قدم الشيخ ويمزق جبته ، وتألب الركاب معي على الرجلين نحاول التفريق بينهما ... ثم وقف الترام ومضى عامل النداء كر يستدعي الشرطي ... »

* * *

وتواصلت الأيام ، وكثرت ملاقاتي لـ « أسعد بك » ، في القهوة . وتوثقت بيني وبينه وشائج الصداقة . واتضح لي أنه شخص غير مضايق كما توهمت من قبل ، فكان إذا رآني في ركني المعهود ، مكباً على كتابي إذا كرّ درسي ، احترام عملي ولم يفتح فيه بكلمة معي . أما إذا لاحظ أنني لا عمل لي دعاني للجلوس معه . ولا أذكر أنه أكرمني بقدرح قهوة أو تقدم لي لفافة واحدة . أما حديثه فكان على صفحاته مسلياً . معظمه حكايات عن حياته الماضية في الجيش ، ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعاً من مبالغات ومغالطات . وكان إذا بدأ حديث الكلب لمعت عيناه بوميض غريب ، وخيل لك أنه يتكلم عن ابن وحيد له قد وهبه موفور محبته وحنانه !

* * *

وتخلفت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت إليها ، فكان أول

شيء لاحظته هو أن «أسعد بك» غير موحود ، ولما جاءني
الخدم بالقهوة سألتُه عنه فلم يُفِدني بشيء . وبعد قليل ظهر
«عويس» ما سح الأحذية ، وكان مسروراً يَضْرِبُ صُنْدُوقَهُ
الخشبى ، فسألتُه :

ما الخبر ؟

— خبرٌ عظيم جداً ... أخذوا كلب أسعد بك فى عربته
الكلاب ...

— يا شيخ ... !

— شاهدتُ ذلك بعينى رأسى !

ونالنى شيء من الأسف ، ولكنى لم أُعِـرِ الأمر كبيرَ
اهتمام . واعتقدتُ أننى سأرى فى غدٍ صديق وكتبه يَحْتَلَنِ
ركنهما المختار .

وبعد فترة انقطاع ذهبتُ إلى القهوة ، فوجدتُ «أسعد بك»
ودرتُ بعينى أبحثُ عن الكلب فلم أجده . وكانت عينا صديق
مربدتين حاترتين ، ووجهه محتقناً . وحديثه فرد على فى اقتضابٍ
وصمت ، فلم أشأ أن أثقل عليه : وقصدتُ إلى مكانى وفتحتُ
كتابى وبدأتُ دراستى . ولكنى ما كدتُ أفعل حتى سمعته
يتكلم فى لهجة شرسة : كأنه يتحدثُ إنساناً أماه ، قائلاً :

يأخذون الكلب ويطلبون منى جنبها نظير إطلاق سراحه ...

- ١٣٥ -

جنها؟... هذا احتيال .. هذا نهب ... ما أسوأ هذه المصلحة !...
وبصق بصقة كبيرة ، ثم أتم كلامه :
... مع أني أفهمتهم أني طبيب ... بل رئيس أطباء الفرقة
التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور ... رجل
مقامي معروف ، وماضي مفعم بجلال الأعمال ... مصلحة رديئة
لا تعرف أصحاب المقامات ... بعداً لها !
وأرسل بصقة أخرى . وكان يتكلم دون أن يلتفت
ناحيق ! ...

وايكني كنت متأكداً أن الكلام موجه إلى ؛ إذ لم يكن
في القهوة سوانا . فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه
اهتمامي ، وقلت :

جميع المصالح مختلفة ...

فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائماً ، وقال :

إلا هذه المصلحة ... إنها ليست مختلفة فقط . إنها غير موجودة .
أصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن جيمي غير مسعور ، وأنه
ليس من السكّاب الضالة ، ويقولون إن الإجراءات يجب أن
تأخذ مجراها ؟ ... إجراءات ؟ سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه
الإجراءات معنى ومع كلبي .. سأريهم ! ..
وضرب بشدة على المائدة ، والتفت إلى هذه المرة وعيناه

— ١٣٦ —

ترميان بالشرر ، وقال :
لقد أرسلتُ إلى وزير الحرية اليوم عريضة لإخلاء سبيل
كلبي في الحال ...
فأجبتُه على الأثر :
حسناً فعلت ا ...

. * * *

وفي غدٍ سافرت مع ليف من طلبة المدرسة في رحلة إلى
الصعيد ، وقضينا هنالك أسبوعاً كاملاً تنتقل بين ربوعه متفرجين
نرى آثاره العظيمة .

وفي اليوم التالي لعودتي إلى القاهرة . قصدتُ إلى قهوق
المعروفة ، فرأيتُ « عويس » جالساً القُرْفَصَاء على الأرض
بجوار إحدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر الرواد . فتأديتُه
وسألتُه على الفور :

ماذا جرى لـ كلب أسعد بك ؟

فابتسم وقال :

تعيش أنت ا

— قتلوه ؟

— منذ أربعة أيام ا

— ألم يدفع أسعد بك المبلغ ؟

— يدفع المبلغ ١٢٠٠٠... إنه يَرْضَى أن يُعطيهم عينه ولا يَرْضَى
أن يدفع لهم الجُنَيْشَه
وشاهدتُ «أسعد بك» ، آنِياً يَتَوَكَّأ على عصا غليظة ،
ويسير في ثَقَل وإعياء ، ولَمَّا اقْتَرَبَ مِنِّي انْبَسَمَ لِي ابتسامةً
ضئيلة ثم جَلَسَ ...
ولاحظتُ على وجهه شُحوباً وامتقاعاً ؛ كأنه قريبُ العهدِ
بِمَرْضٍ خبيثٍ ، وأشار إلى المقعدِ الذي أمامه وقال :
تفضل ... اجلس !

وجلست ، وبدأنا نتحدثُ في أمورٍ تافهة . وكانت لهجته
فاترةً ، ونظراته فيها بعضُ الشرود . ولم يَنْطَلِقْ بكلمة
واحدة عن «جيمي» ، فعلتُ أَنَّهُ لا يُريدُ الخوضَ في هذا
الموضوع .

ثم خَمِمَ علينا صمتٌ ثَقِيلٌ فاستأذنتُ وانسكفتُ إلى
رُكني ...

ومنذُ ذلك الحينِ اختلفتُ مواعيدُ «أسعد بك» ، ولم أَعُدْ
أراه دائماً في القهوةِ كلما ذهبتُ ، وغير عاداته في طلبِ القهوةِ
السوداءِ التي كان لا يَحِيدُ عنها ولا يَزِيدُ عليها ، واستبدلَ
بها بِضْعَ كُتُوسٍ من العَرَقِي ، وكان كلما حَمِيَّتِ الصَّهَباءُ
في رَأْسِهِ اندفعَ يَتَسَكَّمُ في إسهابٍ مُمِضٍّ وبصوتٍ مرتفعٍ

كانه يَصْرُخُ أو يَشْتُمُ ، وكانت مَوْضوعَاتُهُ دائماً لا تَخْرُجُ
عَنْ سَبْتِهِ مَصْلَحَةِ الطَّبِّ البِيطْرِىَّ وَسَبَّ العالمِ كُلِّهِ مَعَهَا ،
وكان يقولُ دائماً : الدنيا كُلُّهَا نَهَبٌ فى نَهَبٍ !
وبدأ يَدْعُونِى إلى شُرْبِ الزَّيْبِ مَعَهُ ، ويقول لى :
لا تَخْشَ ضَرَرًا ، أنا طَيِّبٌ ، إن الزَّيْبَ مُقْسُوٌّ للدمِ
ومثيرٌ للشَّهْوَةِ ... أحسن الشَّرَابِ كُلَّهُ .

وأصْبَحَ مَجْلِسُ دَأْسِدِ بَكْ ، لا يُطَاقُ ، فلم أَكُنْ أَنْعَمُ
مَعَهُ بِتِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْعِذَابِ الَّتِي كُنْتُ أَجِدُ فِيهَا سَلَوَتِي . ولم
يَكُنْ يَنْزُكُنِي إِذَا كُرِّ دُرُوسِي فِي هَسْدُوهُ ، بل كَانَ دائماً يَظْلِقُنِي
بِصَنْبِغِ الْمَرْعِجِ وَيَضْطَرُّنِي إِلَى الْإِنْصَاتِ لَهُ وَتَجْيِيزِ كَلَامِهِ . وكان إِذَا
رَأَى مَقْصِراً فى الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ جَاءَ إِلَى مَائِدَتِي وَنَقَلَ شَرَابَهُ عَلَيْهِ ،
وَاحْتَلَّ مَقْعِدَاجُوارِي ، وبدأ يَصُبُّ سَيْلَ شَكَايَاتِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ
وَشَتَائِمِهِ لِلنَّاسِ .

وَحَدَّثَ مَرَّةً أَنَّ جَاءَهُ صَاحِبُ الْقَهْوَةِ بِحِسَابِ الشَّهْرِ —
وكان مِنْ عَادَةِ دَأْسِدِ بَكْ ، أَنْ يَدْفَعَ الْحِسَابَ جَمْلَةً فى رَأْسِ كُلِّ
شَهْرٍ — فَأَخَذَ الْوَرَقَةَ مِنْ يَدِ الرَّجُلِ ، وَأَلْقَى عَلَيْهَا نَظْرَةً عَابِسَةً ،
ثُمَّ صَاحَ فى وَجْهِهِ :

اذهبْ مِنْ أَمَامِي ، إِنْ أَدْفَعُ شَيْئاً ، كُلُّكُمْ لِمَوْصُوفٍ
مَعَالِيكَ ...

فاحمرّت عينا صاحب القهوة ، وقال له :

الصوص والصعاليك هم الذين لا يدفعون ما عليهم !

- اخرس ! ... أتعرف من الذى تكلمه ؟ ... أنا

أسعد بك الذى كان كبير أطباء الفرقة التاسعة فى الجيش

المصرى !

- وماذا بهم ؟ ... أنا أريد نقودى ، ليس هذا الجنيه بجنيه

مصلحة الطب البيطرى الذى لم تدفعه إنقاذاً لكلك . هذا جنيه

ثمن طلبات شربتها من على !

ورأيت سحنة وأسعدبك ، قد انقلبَت فأصبحت كسحنة

النمر الهائج وقال وصوته يرتجف :

ماذا تقول يا وقح ؟ ... جينه الطب البيطرى ؟ ...

جينه الكلب ؟ ... أتظن أتى بخلت بالجنيه فى سبيل إنقاذ

كلبي ؟ .. أتجرؤ على هذا القول يالعين ؟ ... أنا أَرْضَى أن أدفع

مائة جنيه لاجنباً واحداً من أجليه ، ولكنى لا أدفع ملياً ،

نكابة فى المصلحة !

ورأيت يده يدس يده المرتجفة فى جيبه ، ويخرج ورقة مالية

ذات مائة قرش ، وينال عليها تمزيقاً ، ويقول :

أستطيع أن تقول إنه ليس فى مقدورى أن أدفع جنيهاً ؟

ثم قام وأنشَبَ أظفاره فى رَقبة الرجل ، وقامت بين كليهما

معركة استدعى من أجلها رجال الشرطة ... ١

* * *

وساءت أحوال د أسعد بك ، ... فلم أعذ أراه إلا مخموراً
رثاً الهينة ممزق الثياب قوى الشبه بالمُشرّدين من مدمتي
المخدرات الذين زاحم في الطريق يستجدون المارة ، وكان لسانه
لا يسكت عن حديث النقود ، وبخاصة الجنيه الذي لم يدفعه
إنقاذاً لكلبه ، وكان يؤكّد لي في حماس غريب أنه لم يدفع
هذا الجنيه نكايّة في مصلحة الطب البيطري ، ليفهمهم
أنه ليس مغفلاً . وكان يروى الحكاية لكل من يقع عليه
بصره في القهوة أرض في الطريق ، وهو يهدّد ويشتم ، وإذا لم
يُجِد من يكلمه راح يحدث نفسه محتدّاً وهو يلوح بيده
بحركات شاذّة .

وانقلب من شحج متكالب على المال إلى مشرف
متلاف ، يُنفق ذات اليمين وذات الشمال ، وسمعت أنه كثيراً
ما يذهب إلى مصلحة الطب البيطري ليُطعم الكلاب الضالة ،
ويخرج لها رخصاً بمبالغ لا يستهان بها . وكان يحرضني دائماً
على التبذير ، ويقول :

أنفق ما معك ، وابسط نفسك ... دنيا لا تستحق
الإهتمام ... ١

- ١٤١ -

وحلّت الإجازة السنوية ، وانقطعتُ عن زيارةِ القهوة
ثلاثة أشهر كاملة ، ولما عدت إليها رأيت كلَّ شيءٍ فيها
لم يتغيّر ، وكانت منضدتي المختارة في موضعها بجوار الجدولِ
تظللها أفنان الشجرة العتيقة ، فكأنني لم أفارقها إلا منذ
ثلاثة أيام . . . واستقبلتني الوجوه التي أعرفها كل : بابتسامته
الخاصة .

والفت حولي وأنا مشرق الوجه ، أتصفّح
الذكريات ...

وبغته أظلمت نفسي غمامةً . وقلت على الفور لـ « عويس »
الذي كان يمسح مقعدي في ضجة وسرور ، ويهيج أدواته
لمسح خدائي :
أين أسعد بك ؟

فتوقّف عن عمله ، ورفع بصره إلى ، وقد غاضت
ابتسامته وانقطع ضجيجُه ، وقال بلهجة حزينة موحشة :
ألم تسمع عنه شيئاً ؟
— كلا " ... ١

— لقد أرسلوه إلى المارستان ، كانت حالته في المدة الأخيرة
عبرة . وكنت أنا الذي أعطيتني به ... ١
— ما هذا الكلام ؟

— ١٤٢ —

— الحقيقة ما أرويه لك ...
— وهل يمكنني أن أزوره في المارستان ؟
فَمَدَّ عَوِيس ، صندوقه تحتَ قدمي ، وبدأ يمسح
متباطئاً ، وقال في لهجة استسلام :
كَلَّا يَا سَيِّدِي ... لن تراه ... !
ونكَّسَ رأسه ... فنكَّست رأسي ، وقد فطَّنت
إلى مارمي إليه ...

قبلة الساق

— يا ولد يا عبده ... يا عبده الكلب .. يا ملعون ...

يا تجسس !

كانت هذه النداءات تصافح أذن عبده السمّتان ، وهو منمدّد على الدّكة الخشبيّة المخطّمة في حجرته القائمة بجوار الباب ؛ كأنها لضيقها وحقاريتها كنّت من أكنان الدّجاج ... وكانت الساعة لم تكن تبلغ السادسة صباحاً . ظلّت هذه النداءات تداعب أذنه وهو في حالة بين اليقظة والنوم ، فكانت تصل إلى موطن السمّ من رأسه ؛ كأنها حديث تلفوني أت من بعيد ، تطفئ عليه ضجّة صاخبة . فيحسب نفسه يكلم أحد رواد الملهى الذى يعمل فيه ، وكانت عضلات وجهه تنقلص وتختلج ، وشفته تضطربان بغمغمات غامضة ، إذ كان يشعر في حالته تلك بأنه هو الذى يصب جام غضبه بذلك الشتم والسباب .

وسرعان ما انقلب ذلك الحديث التلفوني في حُلُمه معركة حامية الوطيس في فناء الملهى . فرأى نفسه يضرم المديرة

بأسكّةٍ عنيفة . و يختطف إحدى غيد الملهى المندائسة بحبه ..
وفي أثناء تلك الرؤيا المضطربة كان يتراءى له بلا رابطة
ولا تمهيد بين فترة وفترة وجه عبوس ذو ملامح نائرة . ذلك
وجه الحاجة فاطمة ، صاحبة المنزل الذي يحتل فيه
حجرة البواب .

وازداد الصخب في قوة وعنف ، فاهتز جسم عبده
السنتان ، اهتزازاً شديداً ، وأخذ جفنتاه يتحرران ، ونهض
برأسه وتبدأ يتلفت حوله . فقطن إلى مكانه من الحجرة
يحتل دكنه المظلمة ... وراح يمسح عن وجهه العرق يك
قبائه الأبيض -- لبوس العمل في الملهى -- ورن النداء في
هذه اللحظة ، فالنفسه يعتدل في دكنه سريعاً ويهبط
بصوت متحشرج :

حاضر ...

— يا ولد يا عبده ... يا كلب .. يا غبي ... يا وخيم ...

يا نجيس !

— حاضر ... حاضر ...

وقذف بأخر تشاوية من فيه ، وخالع آخر تمطية
من كتفيه ، ونهض مهرولاً بجسمه النحيل الضئيل ، وقامته
القصيرة إلى مسكن الحاجة فاطمة ، المقابل لحجرتها ، ولم

ينسَ أن يطَجَّ على فهِ ابتسامةً كريهة ، وصاح :

صباحُ الخير يا سَتِي الحاجة

ووقف على قِيدِ خطوتين من الباب . فهو يعرف مكانه
لا يتعداه ، فليس له أن يَبْلُغَ الباب أو أن يَمْسُدَّ عينيه إلى
ما وراءه ... ولاح له من جانب الباب طيف ، الحاجة فاطمة ،
وهي مرتدية البياضَ على مألوفِ عاديها ، ملتزمة بالخمارِ
الأيض ينسبط على صدرها حتى يغطي يديها ، وسمعا تقول :
أين كنت يا نجس ؟

ومد يده ليحييها في غير وعى ، ثم ما عَمَّ أن ردها إلى جنبه .
إنه منذ التحق بالبيت شبه بواب ، لم يحدث أن لمست يده يدها
الملففة أبدأ في الخمارِ الأبيض خلال السنوات الخمس التي قضتها
في خدمة البيت ، ولطالما سمعا تقول :

تنح عني ... حاذر أن تنقض وضوئي !

ولما برزت له من جانب الباب سأها :

أية خدمة تبغين يا سَتِي الحاجة ؟

-- ألا تعرف عملك يا نجس ؟

وكان على الرغم من تكرار كلمة « نجس » على سمعه ،
واعتياده أن يتلقاها من « الحاجة فاطمة » ، لا يستطيع لها احتمالا ،
هل يشعر بأنها ثقيلة الوطأة على نفسه ، فوقف يجمجم :

يا فتاح يا عليم ... كل يوم نجس ... نجس !
 — وهل أنت إلا كلب نجس ؟ ... ما صنعتك ؟ ... ألسنت
 خادم مرقص ، لوث ؟ ... خادم موبقات ؟ خادم .. خمر وتهتك ؟ ...
 تقضى أكثر ليالك ساهراً غريقاً في تلك البؤرة ، فلا تصحون
 نومك إلا بهركة ...

رفرف صوته قليلاً ، وهو يحدّق أمامه تحديقاً تائهاً ، وقال :
 ياستى ... هذا نصيبى ... هذا مقسوم لى .. نجس ...
 قدر ... إن كان هذا يرؤفك فأنا فى خدمتك وإلا فاتركنى
 وشأنى !

وكان مثل هذا الموقف على شدته ، وما يتوقع أن ينجم
 عنه من حدوث كارثة فاصلة ، ينتهى دائماً إلى رضا ووفاق ...
 فترات صمت ... تراجع من الجانبين ... كلمات عتب ومؤاخذه
 رفيقة ... تبادل ابتسامات متكلفة ...

وإنما كان ينتهى الموقف إلى هذه النتيجة المسالمة ، لأن كلا
 منهما يجد نفسه لا غناء له عن صاحبه ...

كان « عبده السهتان » الموظف اللبلى بملهى « نزهة الأرواح »
 يقضى أكبر نهاره شبه « بواب فى هزل » الحاجة فاطمة ،
 راضياً عن هذا العمل بما يصيب من بقايا الطعام ، « من
 المغالطات فى حساب ما يشتريه لصاحبة المنزل ، وما تعطيه

إياه « الحاجة » من أجرٍ شبرى . فأما حاجتها إليه فلأنه حلقة الاتصال بينها وبين العالم الدنيوى ، لا تستطيع قضاء شيء بدونه . فهي مقيمة وحدها معتزلة الناس لا تزور ولا تزار ، ولا تبارح عتبة الدار إلا مرة واحدة في العام ، تنتقل فيها إلى القطار في طريقها إلى حج بيت الله الحرام ... فأما عمَلُها في ليل أو نهار فهو الصيام والقيام والتعبد بالتلاوة والتسبيح ، لا تفترأ ذاهبة آية بين مكان الرضوء وبجادة الصلاة ... وكل ما يشعر الجيران بوجودها هو قنقعة القبّاب وحدها حين تذهب أو تتوب . وليس يعلم أحدٌ ماذا يدور في مسكنها وعلى أي شيء يكون ، حتى إن « عبدة السهتان » أقرب المقرّبين إليها لا يستطيع أن يعرف من دخائل هذا المسكن كثيراً أو قليلاً ... وقد أشرفت « الحاجة فاطمة » على الستين ، تمل بشرتها إلى البياض ، مكتنزة الجسم ، تسير ممتدة الخطا كأنها تنخطّر ، وهي تنفخ على نفسها من كراء منزلها العتيق الذي تحتل منه الطبقة الأولى .

ومدّت « الحاجة فاطمة » سَفَطاً إلى « عبدة السهتان » فتناولوه في حذر . ووجدت في قاعه قطعاً من النقود ، ووقف يتلقّى مطالب السيدة من الشوق ، ونصائحها له أن يكون بصيراً يقطعاً لا يتغفّلها ولا يدع الباعة تنغفله ...

وخرج الرجل يحمل السّفط في يمينه ، وسار متباطئاً

الخطو والضيق آخذٌ منه كلٌّ مأخذ . واستقبل الشارع فلان صادفه عمودٌ من أعمدة المصابيح حتى وجد نفسه يستند إليه ويلقي السَّفَط بجواره مُرخياً لأفكاره العنان ... أخليقٌ هو بأن تطلق عليه « الحاجة فاطمة » لقب النجس ؟ ... الحق أنه خادمٌ وَضِيعٌ في مَلهى غير مشرفٍ تعرّض فيه ألوانٌ من الفنّ الرخيص للرّقص والغناء المبتذل ، تنطوى على تهتك وإزراءٍ بالفضيلة ... ما عمله على وجه التخصيص ؟ ... إنه لا يستطيع له تحديداً ، فلا هو عامل مخصصٌ للتلفون ، ولا هو غلام مقصف ، ولا هو أحد عمّال المسرح ... إنه لمفروض عليه أن يشترك في كلِّ شيء ، ولكنه في الواقع لا يعمل شيئاً مذكوراً . تارةً تطلب إليه إحدى الغيد أن يستدعى لها سيارةً ، ومرةً يرغب إليه أحد رواد الملهى في شراء علبة من لغائف التبغ .. وأنا يكلفه مدير الملهى نقل المقاعد وترتيبها على نحوٍ مرسوم ؛ وهو مع كل هذا سفير الغرام بين المحبّين ، يتنقّل بين الموائد حاملاً رسائل شفوية أو تحريرية ، تتضمن أنباء المواعيد وتباريح الاشواق ... وطوراً يجد نفسه قد اندسّ في مشاجرة ينصر فتهً على فئة دون أن يدرك لماذا يناهر أو يعادى ؟ ... وطالما خرج من هذه المشاجرات مشنّجوج الرأس داميّه ... إنه يعيش منذ أعوام في هذا الملهى الممطر دائماً بأريج المرأة الفواح ،

الحافل دائماً بطيفها الألاء ، المتجاوب أبداً بصوتها ضاحكاً أو شاديةً أو عابثةً ، المهتزُّ أبداً بحركاتها لاعبةً أو رانصةً أو متبخثرةً . . .

وتحايلت على وجهه ابتسامة بلهاء ، وهو في وقفته بجوار عمود المصباح ، يعرض في عيِّنه تلك المناظر الغاتنة لغايات الملتهى ؛ ولكن ما موقفه هو من ذلك كله ؟ ... إنه ليس أكثر من دعامة من دعائم هذا الملتهى ؛ بل لعله أشدُّ ذلةً وبؤساً . إن الدعامة لتمرُّ بها المناظرُ فلا تحسُّ لها ديبياً ولا تشعر لها باستجابة ، أما هو . فتمرُّ به هذه المناظر فتلهبُ قلبه وتثير وجدانه وتوقظ فيه شتى الأحاسيس ، فتظل تساوره دون أن يجد لها ما يشفى الغليل ... إنه ليذكر أن غانية طلبت إليه منذ يومين أن يأتي لها بمعطفها لجاءها به ، وكان وهو يحمل هذا الرداء الأملس الناعم المشبَّعَ بعبق مسكر ؛ كأنه يحمل بين ذراعيه صاحبةً بحسنها البضُّ وشعرها الفينان ... ولما ناولها إياه قالت له : « أصلح الخدام في قدِّمى يا عبده ... » فهبط من فوره على حذائها ، وأمسك بالقدِّم العارية تموجُ بلونها الوردى ، وجعل يقلِّبها وهو يرنو إلى أصابعها اللامعة بخضابها الأرجواني . وسبَّحت عيناه إلى السَّاق البديعة المُلَّساء . فسرت الرِّعشة في يده ، وألنى وجهه يتدانى ، رفقه يتحفز لاختلاس قبلة من تلك المغان .

وما كاد يهيم بذلك حتى أحسَّ بدفعة في ظهره أسقطته، وسمع قائلاً يقول له :

دع الخذاء يا غبي ... أنت لا تحسنُ مثل هذا ...
فتنحسَّى « عبده السهتان » عن مكانه ، وجثأ الرجل يصلح
للغاية وضع قدمها في الخذاء ، ثم لمحَّ وقد انتهب قبلة مترعة من
ساقها الرشيقة ... وأرسل « عبده السهتان » من أعماق صدره
زفرةً جيّاشةً ... محظوراً عليه أن يستمتع بمثل هذه القبلة ، على حين
أنها ميسورةٌ لغيره من أمثال ذلك الرجل ... وصعد بصره
فيه فإذا هو « أبو النبايل بك » الشيخ المتصابي الثرى الذي قضى
أحليب عمره في صلاح واستقامة ، حتى أشرف على الستين ، فإذا
بالشيطان يسوقه في معترك الشهوات ، فيتبدّل ويختلّع
ثوبَ الوقار ...

إنه « أبو النبايل بك » ذلك الذي يختلف إلى المنهى كل ليلة
ولا يظهر في ليلة إلا بحلة قشبية لم يظهر بها قبل . هو صاحب
تلك المحفظة السحرية التي تخرج منها الأوراق تباعاً دون
أن ينقطع لها فينض ، هو الذي إذا جلس إلى خيوان الشراب
تهافتت عليه أسراب الغواني يحطنه بسواعدهن الرخصّة ، وتعالى
حواله أصواتهن بالمرح والدُّعابة ... على حين أنه هو عبده السهتان ،
لا عمل له إلا أن يشظر ويتنهد !

واعتدلَ في وقفته بجوار عمود المصباح في الشارع ، وقد
أيقظه من أخليله صوتٌ انبعث من بوق سيارةٍ تعدو ، فأطار
من رأسه تلك الذكريات المتداعية ، وألقى نفسه يرسل في الهواء
بصقةً ، ويردّد :

« مكان سمي السمعة ... تهتك ... دعاة ... قبحاً
لتلك الحياة ... » ، إن « الحاجة فاطمة ، لم تعد الحق
حين وصفته بأنه نجسٌ قذرٌ ما دام يَحْمَلُ في هذا المكان ...
وطأ رأسه ، والنقط السفط ، ثم انطلق إلى السوق .. وجاز
في طريقه بقبوة ، فدخل فيها وألقى السفط ، وجلس يتناول
فطوره كوباً من الشاي وجانباً من الكعك ، ثم أشعل لفافةً ،
وراح يجذب أنفاسها في غير اكتراث . وأمال بصره إلى سفطِ
« الحاجة فاطمة ، قابلاً تحت قدمه يمثلُ الطير والوقار والتقوى ...
وطال إليه تحديقه ... » إن صاحبة هذا السفط مكتوبٌ لها نعيم
الجنة تخلد فيه ، أما هو فمكتوب له عذاب النار وبئس القرار ...
وركل السفط ركلة ألقت به بعيداً ، وما لبث أن لاح لخلجته شبح
« أبي النبايل بك ، ذلك الشيخ السادر في مآثمه ، المتهتك في
شيبته بعد حياة عفة ونقاء ، وتمثله ، وهو يشاركه في مكانه من
الجحيم ، فطأنت بقمه ابتسامةً ، وهمهم :
« العبرة بالخاتمة يا حاجة فاطمة ! ... »

ونادى بخادم القهوة ، فدفع إليه ثمن الشاي والكمك من نقود سيدته .. ومر به بائع لفائف التبغ فاشتري علبة ودفع ثمنها من تلك النقود أيضاً ...
وكان وهو يدفع هذه النقود يتجه بطرفه خلسة إلى السفط ، ثم يزور عنه سريعاً ... !

* * *

كان الملبى في مساء ذلك اليوم غاصاً بالرواد ، كله عبثٌ صاحب ، عبث في النور ، في الشراب ، في الرقص . في الكلام ، في الضجّة ... عبث في كل شيء ...

إنها حفلة ممتازة من حفلات السنة !

وانتشرت الغانيات في الملبى تنساب بين الموائد انسياب الظلام بين الحمايل ... وكانت لفائف التبغ حيرى متعبة وهي تعلو وتهبط في الأيدي رائحة غادية ، ثم يسقذف بها وهي في جددتها لم يستوف تدخينها ، فتطوها الأقدام لاهية غير عابثة ... وتراءت الخصور تثني . والنهود تترجج على أنغام الجاز ، والغناء يرتفع فيختلط بالضجيج متزايلاً فيه ، واشتدت الزحمة ، وكثر الطلب لأقداح الخمر ، واختلط السقاة بالرواد ، فلم تعد تميز بين خادم ومخدوم ؛ حتى لقد ترى الصواني طائرة فوق الرؤوس ذاهبة آية بلا هوادة ولا رفق كأنها وحدها تسير ... كل هذا

و « عبده السهتان ، بجوار رفيقه القديم عمود الملهى يرى
ويتحسر. وعيناه تنقلان بين الأقدام الفتانة والسبقان العارية ،
يطوف بخاطرهما حادث الغانية التى هم بتقبيل ساقيها وهو يعالج
وضع قدمها فى الحذاء . . . وكان يخادع السقااة والرؤاذاً فيحدثى
حُبابات الكتوس ، أو يهبط على الأرض يجمع اللغائف فيستمتع
بأنفاسها التى زهد فيها العابثون . . .

وغادر « عبده السهتان ، الملهى بعد منتصف الليل ، وقصد إلى
حانة حقيرة يستكمل فيها حاجته إلى الشراب ، وأندفع يعُقب من
خمرها المحرقة ، وخيال الملهى بمشاهدة الخلابة يملأ رأسه ويتراقص
أمام عينه . . . أطيايف المرأة بسيقانها العارية ، وأقدامها الرشيقة
التي لا تهدأ لها حركة . . . وما إن فرغت نقوده حتى حمله صاحب
الحانة ودفع به إلى الطريق ، وبعد تجوال هنا وهناك مترنخاً
متساقطاً احتواه وكره العتيق ، فرمى بجسمه على الدكة الخشبية ،
وما لبث أن غشيته سبات ثقيل .

وفى صبح اليوم التالى ، والساعة قد بلغت السادسة ، بدأ
يتعالى أمام حجرته هذا النداء :

يا ولد يا عبده . . . يا عبده الكلب . . . يا نجس !

وكانت الألفاظ يزأحم بعضها بعضاً متجمعة حول حجرته
تحاصرها وتزأبها هزاً عنيفاً ، وما لبثت أن افتحمت الباب

وتدفقت تصارع أذن « عبده السهتان ، وكان في ذلك الوقت
أسيرَ حلم تراءى فيه غانية الملهى تمدُّ له ساقها ، ايصلح وضع
قدمها في الحذاء ، وهى تغمرُ له بعين مسترخية ، وتبادله ابتساماً
بابتسام ... ولكن صخب الملهى تزايد بغتة ، وظلت الضجة
تعلو ، ولقطة نجس ، تتطأ كالثمر في هذا الجوَّ النائر .
و « عبده السهتان » يتقلب في فراشه دون هوادة ، وكاد يصرخ
ليسكت الضجة ، فوجد عينيه قد تفتحتا محمقتين ثم ألقي نفسه يصبح
بصوت جهورى :

حاضر ... حاضر ...

ونفض مهرولا ينفض النوم عن جفنيه ، ورأسه ما برح
مثقلاً بما عبَّ في ليلته من شراب ، وراح يهجم في زججرة
مكتومة ، ودلف إلى باب مسكن الحاجة فاطمة ، وعلى فمه
ابتسامته المطبوعة ، وإشرافه المتصنع ، ووقف على قيدِ خطوتين
من الباب ، وقال وهو يمسح لعابه المتسائل :

أية خدمة تبغين يا ستي الحاجة ؟

وتخايل شبحها من جانب الباب ملففةً بالبياض ، فراح
يسارقها النظر ، فتجلى له جسمها المكتنز ، ورأى قدميها الناصعتين
تملان القيقاب . وسمعها تقول :

ألا تعرف عمالك يا قدر ؟ ... عمالك الذى تأخذُ عليه أجرَكَ ؟

أليست اللقمة التي أمتحك إياها هي التي تقوتك يا نجس ١٢
واندغمت تطلق عليه قذائف السباب متراسة حامية ، فخدق
فيها ، ثم صاح :

كفأك شئنا ... ماذا تغنين نفسك ١٢
... أنذنب ثم تتوقع وتبجح يا قليل الأدب ؟
- صوفى لسانك عن هذا الكلام ... وإلا ...
- ماذا يا كلب ؟ ... ماذا يا نجس ؟ ...

ورفعت السّعة في يدها ، ثم قذفت به في وجهه ساخطة ،
ولكن اندفاعها وهي تقذف بالسفط جعل القبقاب ينزل
عن قدمها . فنظر القدم جلية أمام عين الرجل ، وإذا
به الحاجة فاطمة ، تفقد تماسكها وتوشك أن تهوى ، فعجل إليها
عبد المهيمن ، مارقاً من الباب . فأمسك بها يريد أن يحمىها
من السقوط ، فتهاوت عليه بجسمها البدين ، فسقط معاً ، وقد
التوت قدم الحاجة فاطمة ، فرددت متألمة :

رجلى ... رجلى ...

ونفض الرجل ليرى ما أصابها ، وامتدت يده إلى قدمها
يتحسسها ويدلكها وأحس بها ناعمة الملمس ريانة الجوانب ..
وزاغ بصره ، واضطربت أخيلته ، فلم يعد يميز أية قدم هذه التي
بين يديه ؟ ... وأخذت المشاهد تتشابك في رأسه المنقل بأثار

الشراب ... حادثته مع غانية الملهى ، « أبو النبايل بك ، الشيخ
المتصافى الثرى ... الليلة البارحة وما كان فيها من عبث ووجون ...
وكانت يده ما فتئت ذلك قدم ، الحاجة فاطمة » فى حنان
ورفق ، وخيّل إليه أنه يسمع صوتها وهى تقول :

تَسَحِّحْ دنى ، لا تمس قدمى يا نجس !

ووثب فى مخيلته مشهد « أبى النبايل بك ، وهوى بتوا معه مقعده
من الجحيم ، وقد تدانى منها شيخ ، الحاجة فاطمة » فى طريقها إليها ...
وإذا بضجركه صاحبة تنطلق من حلقه ، فهز لها جسمه ...
وإذا بعينيه تلتهمان وتسبحان إلى ساق ، الحاجة فاطمة ...
وإذا به ينقض بقمه على الساق الناصعة الملساء وقد طوقها
بيديه ، وشفاته تختلجان ...

رشاع صمت عميق لم يكن يشوب صفوه إلا بعض زفرات

وتنهات ... !

« أبو علي ، وزجاجة الكونياك »

ترك « أبو علي ، الاستوديو ، ودلف إلى الشارع يتخطر في مشيته ، ويتمال بقامته القصيرة ، متلفناً بمنة ويسرة إلى السابلة حوله ، يجود عليهم بين الحين والحين بنظرات خاطفة من نظراته المنرفة المتعاطمة .

لقد أكل اليوم دوره في فلم « النجوم العشرة » وهو دور على قصره مقدم بأكبر الحوادث خطراً ، وأعظمها شأنًا . يمثل مشجرة عذبة تقع في قهوة بلدية ، وكان دوره ينحصر في أن يتأثر « نزاكه » - النجمة العالمية المصرية - فيطارحها الغزل على قارعة الطريق . فيخرج له من القهوة « أبو عفان الباطجي » - النجم المصري العالمي -- فينهره ... وسرعان ما تستخدم المشجرة العذبة التقليدية ، ثم تنتهي على أحدث الطرق الفنية الأمريكية . . .

لقد نال « أبو علي » ثلاثة جنيحات ، أجرأ على قيامه بتمثيل دوره . وهي مكافأة في الحق بخساسة ، قبلها تضحية منه في سبيل الفن ... ذلك الفن الذي وقف حياته على خدمته ،

والعمل على رقيه ، لا يبتغى من وراء ذلك جواز ولا شكورا ...

سار ، أبو علي ، في الطريق منتفخ الشدين نافر الأوداج .
لقد كان انتصاره في الواقع عظيما ، ولكن لكل انتصار ثمنه .
إنه يسكن مابه من ألم صارخ ، ويتحسس خفية رأسه وصدرة
وساقيه وما فيها من كدمات وجراح . ولكن كل هذا هين
منصور ... حسبه أنه استطاع بحيلة طريفة أن يطرح
« البطجي أبا عفتان » ، أرضا ، وأن يجعله يترع في
سحاة الطريق ...

وداعبت أصابعه المحفظة العامرة بالورقات المالية
الثلاث ، فثبت على الأثر أمامه عاصفة من المطالب والرغبات .
وما أسرع أن قفزت المشروعات الفنية إلى خاطره تتدافع
وتتسابق ، ففسح لها أرضا أرحب الأمانة وأطيبها ... ومر ياله
عقوا مطلب عتيد لأمه ، حلم قديم طالما رغب في تحقيقه ،
ولكنه ظل عنها بعيد المنال ، ذلك هو الحصول على كيلة
من الأرض وبضعة أرمال من الزبد لكي تنعم بمذاقها فترة
من الدهر ... وبرز أمامه حانوت يقال ترصع وجهته أشنات
من السلع المغربية بحسن رصفها وتنسيقها ، خفف من سيره ،
معزما أن يدخل الحانوت ليشتري لأمه ما طمعت فيه ...

إن للأمومة حقاً يجب أن يرتاعه... وما كاد يخطو صوب الحانوت
حتى تراءت له «قهوة الفن» بموائد العتيقة الجائرة على طوار
الطريق، وحول كل مائدة شردمة من زملائه الفنانين يناقشون
في صخب وشغب. وتضوأت روائح الخمر تداعب
خيائمه العطشى، فقد نهض على وقت طويل لم يطرُق
فيه هذا العُش الحبيب، فأحس الصبوة تمتاج في
قلبه وتثور...

وحسّ خطاه نحو القهوة، وما هي إلا أن طوّته في غمارها
المتدفقة...

واحتل «أبو علي» إحدى الموائد، ودعا بالشراب، فالتف
الأخدان حوله، فانطلق يُحدّثهم عن فلم «النجوم العشرة»
ودوره فيه، وغاض في ملاحظاته وتقدّاته. وكان يعبُّ
من «الكونياك» عب من استعر أواره، والأخدان يحيطون
به محتفين مهللين، وزجاجات «الكونياك» تتوالى، والكؤوس
تصعدُ مترعة إلى الشفاه، وتبسط فابغة إلى حافة المائدة،
والضجة تتعالى، وقهقهة «أبي علي» تجلجل مُجنّحة في سماء
المكان لا يقر لها قرار...

وما كاد الليل ينتصف، حتى نهض «أبو علي» يودّع رفاهه،
ودفع ثمن الشراب كاملاً في سحابة وإمارة. وهو يستنهر الساق

ويزجره... نهض يترنح غير مكين في وقفته. فهُرع إليه الصبيُّ
ماسح الأحذية ينفذ عن حذائه المتفضن المتآكل ما علق به
من تراب... فرمقه بنظرة شزراء، وغغم قائلاً وهو يقذف
إليه بقطعة من النقود :

اذهب يا ولد فأحضر لي عربية... ..

— على عيني ورأسى يا بك... ..

ولم يكد الغلام يستدير على عقبه خارجاً حتى شعر بقدم
« أبي علي » تدفعه بغلظة في ظهره فانكفاً على وجهه ، وأنبعث
الاستاذ بجمع بضككة جبارة موصولة الحلقات ... ووقع
بصر « أبي علي » على زجاجات الكونياك : متراحة على المنضدة
تلمع في وضاء وسحر : كأنها الغواني الفاتنات يتغayدن على
المسرح يترنشن على النظارة فذهن البهيج، وفطن إلى أن إحدى
الزجاجات ما يزال بها بضع جُرعات ، فغافل الجمع - أو بدالة
أنه قد فعل - واجتذب الزجاجاة فدسها في جيبه ... وخرج
يتهاذى في خطأ متعثرة ، فألقى العربية تنظره فصعد فيها
وانحط على مقعد ها ، ففطس فيه فلم يظهر منه إلا قدما قد ارتفعتا
واستقرتا خلف مقعد السائق... وسُمع صوته يصيح في حشرة :
إلى سيدنا الحسين يا أسطى... ..

وجعلت العربية « ثجر جرجر » بمحاصنها الأعففين المجهدين

وسائقها المهدِّم المتَّجِّع على مقعده العالي العتيق ، وراح
« أبو علي ، يترنِّمُ بمختلف الأناشيد ، تارةً يعلو بها مصوِّتاً ،
وتارةً ينزلُ بها إلى أدنى درجات الإيقاع ... وعبونُ السابلة
تفتحُهم في فضول ، وسوط السائق ينكشُ منطوياً على نفسه ،
ثم لا يلبثُ أن ينسطَ في فرقة مدوِّية ، كأنه يكلُّ النغمة
فيما يترنِّمُ به الأستاذ من غناء أصيل .

وانتهى المطافُ بالعربة أخيراً إلى « سيدنا الحسين » ، ونزل
« أبو علي ، وقد أفرغ ما في جيبه في يدِ السائق ، وتباطأ برهةً في
سيره حتى لا تفوته كلماتُ الشكرِ والاعترافِ بالجميل ، يقدِّمها
السائق على مسامعه ، ولكنه سمع الرجلَ يصبح متسخطاً
متبرِّماً فائثراً بآية مهتاجاً ، وقد تنفخَ في وقفته ، وجعل
يجأُ بقوله :

أتحسب أيها الوضعُ أنك قادرٌ على أن تنفِّلني ، وتنالَ مني
مالاً تستحيقه ... لا يستطيعُ أحدٌ كائناً من كان حتى الجنُّ
الأزرقُ أن يستخفَّ بي ويهزأ ...

وطال النقاش ، وتشابكت الأصواتُ في ضوضاءٍ تعكُّرُ
صفوَّ الليل الوادع المستنير ، وسمِع صوتُ قارئٍ يرتلُ آيَ
الذكرِ الحكيم على مقربةٍ من المتشائمين ، فأمسكاً ... وغنم
« أبو علي ، قائلاً :

أما تستحي أيها الرجلُ أن تغلي صوتك على صوتِ
القرآن الكريم ١٩

وأيقن السائقُ أن ليس ثمة حيلةٌ تجدي مع هذا القزم
الصخّاب ، فاستدار بعربيته ، وانبرى يفرّقع بسوطه على ظهري
حصانيه الأعجفين ، وهو يبرطمُ لاعناً الزمن وأهله ...
وانحدرت العربّة تجرّجراً في منعطفاتِ الطريقِ يطويها
الظلامُ البهيم ...

ومضى د أبو علي ، في الشارع يتخايلُ في مشيته ، وقد دسّ
يديه في جيبه ، وأبرز صدره وعلا بهامته ... وعرج في مسيره
على القاري . وهو على حاله يرتلُ آيّا من الكتاب العزيز .
فوقف قبّالته يستمع ، فما ينتهي القاري إلى مقطعٍ حتى يغجل
د أبو علي ، بقوله :

الله ... الله ... !

ولمَح يدَ القاري تمتدُّ طلباً للعطية : والمستكنّة باديةً عليه .
والحاجة تفصحُ عن نفسها في أسماله البالية ... فتحرّكت الشفقة
في قلب د أبي علي ، وثارَت أرحمته ، وعقد عزّمه أن يهبَ لهذا
القاري أسخى عطية تنقذه مما به من بؤس وضرّ ، ابتغاء مثوبة
الله ورضوانه ، فرفع يديه إلى جيب صدره ينقب ويفتّش ،
فلم يجد شيئاً . فبحث في مختلف جيوبه الأخرى وقد أخذ منه

العجب كل مأخذ ، فأيقن أنها خاوية جميعاً ... أيكون
الحوذى قد سلّبة ماله؟ ... وهمهم في حيرة يستمطر اللّغات
على ذلك الوغد الزّئيم ...

وكان القارىء يسترسل في ترتيبه متحمساً ، ويده تمتد
أكثر من ذى قبل مهزّة تستعجل العطاء ...

وعاد « أبو علي » إلى زوايا جُيوبه ، وخفايا ثيابه ،
يتحسّس ويتلّسّ . فاصطدمت يده بزجاجة « الكونياك »
القابعة في ركنها الكمين ، فانزعتها ، وأخذ يتفحص البقايا
في قرارتها .

وطالت وقفته ، يتأملها ويديرها بين أصابعه ، واختلجت
شفته اختلاجة الحنين ، وتجمّساً طويلاً ، ثم اشرأب إلى السماء
وقد اشرق وجهه بإبحار عميق ، وعزم وطيد .

وفي حركة تمثيلية رائعة امتدت يده بزجاجة « الكونياك »
إلى القارىء ، وارتدّ يتمثل في خاطره أن العمل الصالح لا بدّ
فيه من تضحية بالنفس أو النفيس ... !

وانكفأ « أبو علي » راجعاً إلى طريق بيته ، وهو راضٍ
جذلاً ، مطمئن الضمير بعمله الكبير ...

وانبعث يُخْرِج من فيه صغيراً يُوقع به أحد أناسيد
« النجوم العشرة » ...

الطابور الخامس

تركَ الشاويشُ دَاحِدَ فرقع ، دارَ شُرطَةٍ ، السيدة ، حيث
انتهتْ نوبَتُهُ فيه ، وسارَ في الطريقِ بِجِسمِهِ الممتلئِ القصيرِ ،
كَأَنَّهُ كُرَةٌ تَتَدَحرجُ ، ميمِّمًا شَطْرَ دَ السيوفية ، اِيحْظَى
بِحَاسَةِ مِرِيحَةٍ فِي قَهْوَةِ دَ زينةِ المدينة ، على مألوفِ عَادَتِهِ كلِّ يومٍ .
لَقَدْ قَضَى النِّهارَ بِأَكْمَلِهِ يَعْمَلُ عَمَلَهُ المُنْصَنِعِ يَتَلَقَّى الأوامرَ
من رؤسائِهِ ، ثُمَّ يَنْفِذُهَا فِي مَحَلِّاتِ الله من الباعةِ
الجَوَّالينَ ، والمستجدينَ ، وغائِمَانِ الأَزَقَةِ . فرجعَ أُنْجَ
الصوتِ من شِدَّةِ الصَّبَاحِ ، متَعَبَ القَدَمَيْنِ مِنَ الرُّوحِ والغَدْوِ ،
قيامًا بالواجبِ الملقى على كَاهِلِهِ . وكانَ على الرِّعْنَمِ من إجهاده
مَشْغُولَ الفِكرِ بِمَوْضُوعٍ غَامِضٍ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى كَشْفِهِ ؛ وَهُوَ مَوْضُوعُ
دَ الطابورِ الخامسِ ، فَقَدْ طَالَ التَّحَدُّثُ بِهِ فِي دَارِ الشُّرْطَةِ ، وَكَثُرَ فِي
شَأْنِهِ لَغَطُ الرُّؤَسَاءِ ، سَمِعَهُمْ يَتَبَايَحُونَ فِيهِ وَيَتَجَادَلُونَ فِي جِدِّهِ واهْتِمَامِهِ .
تَارَةً هَمَسًا ، وَطَوْرًا جَهْرًا . وَخِجَلًا أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ هَذَا
الطابورِ ، لثَلَاثَ يَتَمِّمُ بِالْجَهْلِ ، وَتَنَارَ حَوْلَهُ عَاصِفَةٌ مِنَ السَّخَرِيَّةِ
كَمَا وَقَعَ لَهُ قَبْلًا حِينَما أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْضِحَ مِنْ بَعْضِ رُؤَسَائِهِ

حكاية الألقام المفضلة !

دخل الشاويش د أحمد فرقع ، قهوة دزينة المدينة ،
وأخذ يحكى شايه الأخضر قدحاً لئسر قدح ، وقد استلقى
منتفخاً على كرسيه يقرقر بنارجيلته ، وأزاح طربوشه
عن جبهته ، فلم يعد يغطي إلا مؤخر رأسه ، وبسط جريدة
الاهرام ، ومضى يطالعها ، وأعلى الصحيح يقلب فيها النظر ، ويعبر
عناوين المقالات ، فصادفه عنوان بالخط العريض :
« الطابور الخامس وضرورة مكافحة رجال الأمن له ، ...
فهرش رأسه طويلاً ، ثم عاد يقرقر بنارجيلته .

وجاءه نفر من أصدقائه — أخلاط من أشباه المتعلمين —
فما كاد يستقر بهم المقام حتى انطلقوا يثرثرون في مسائل
الحرب ، وما كسبته الدول وما خسرتة ، وأدلى كل فرد
برأيه في مستقبلها ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى « الطابور الخامس ،
فأرادوا أن يتبينوا رأى الشاويش د فرقع ، فرمقهم بنظرة
متعالية ، وابتسم ابتسامة تحفظ ، ثم أخذ يقهقه في وقار وهو يفتل
شاربه الغليظ ، فقال أحدهم :

لا يريد الشاويش د فرقع ، بالطبع أن يتكلم أماننا عن
سر المهنة ! ...

فانطلقت قرقرة النارجيلة جبهة متحمسة تجيب المتحدث

بدلا من الشاويش الكتوم !

قضى الشاويشُ سهرته في قهوة « زينة المدينة » ، وهو يحس راحةً ونشاطاً ، وهضى صوبَ منزله ، ولم ينسَ طبعاً أن يشتري شِمامةً طيِّبة من بائعِ جِوال ، تأبَّطها في زَهْوٍ وهو يضرب الأرض بنعلينه الثقيلتين في خطواتٍ متزنة .

دخل الشاويشُ داره فاستقبلته زوجته « رواج » ، بقدها السمنهريّ ، ووجهها الفاتن ، وابسامها المتألقة ، فشاعت الغبطة على أساريِّه ، وقال لها وهو يناولها الشِمامة :

أوحشتني ، ما أطول النهار علىّ وأنت غائبة عني !

فقال في دلال ظاهر ، وهي تضعُ الشِمامة جانبا :

وأنت أيضاً لقد أوحشتني ، إن أفكرُ فيكَ طول النهار ، وأقول :

ماذا يَعمَلُ يا تُرى ؟ ... الدنيا كلها متغيِّرة ، وكلامُ الناس يدعو إلى القلق ... أدعو الله أن يُطمئنني عليك ... أنتَ عندى بالدنيا ... !

— لا تخافي عليّ يا رواج ... أنا لها ... !

— صحيح يا حمودة يا سبَّع الرجال ... !

وراح الشاويشُ « أحمد فرقع » يتأملُ وجهها طويلاً وهو صامت ، ثم عاد يقولُ مغنماً :

— ١٦٧ —

ترى ماذا عملتِ طولَ النهارِ يا رواج ؟
 فقالت وقد زادتُ من تدكِّلها :
 عملتُ الذي قلتَ لي اعْمَلِيه ا

— صحيح ... ١٩

— ورأسك الغالي ما خرجتُ من البيت ا
 — والحاجات ، من أتى بها من الشوق ؟
 — جاءت بها حلويات بنتُ الجيران كما أمرتني ...
 — والشبَّاك ؟

— والله لم أقربُ منه ، فقدتُ عينيَّ إن كنتِ كاذبة ا
 — تسلمُ عيونك ... ولكن ... ربما يمكن ...
 — ماذا يمكن ؟ ... أقسمُ بالله إن يدي هذه لم يربها أحد
 غيرك يا مؤمن ا

— حقاً ، ألم يربها أحد غيري ؟

— لا والله ، ولا أطراف أصابعي ا

فاتحنتها الشاويشُ « فرقع » وهو يكررُ قوله :
 يا رواج القلب ا ... يا رواج النفس ا ... يا قطعةً من
 مُهنجتي ا

... وجيء بالشَّمَامَة ، فوضعتُ في صينية وسَطَّ الحجرة ،
 وجلس إليها الزوجان ، وأخذوا يقطِّعان منها ، ويلتھمان إلتھاما ،

وعاد الشاويش د أحمد فرقع، أثناء الطعام يسأل زوجته في حوادث يومها مستفسراً على دقائق الأمور، مطالباً بالشرح والإفاضة؛ كأنه يُحرّر محضر تحقيق في دار الشرطة، وروايح، تجيب بلا ملل، وقد تشفّع الكلمة بابتسامة مضحوبة بغمزة عين، والجملة بضحكة ناعمة مريحة... وكان أن خستَم الشاويش حديثه بقوله:

أنت تعرفيني... لا بد أن تنفذى أوامري حرفاً بحرف.

فأجابته وهي تجمع فضلات الشمامة في الصينية:

أيقدر أحد أن يخالف لك كلاماً؟

وكان الشاويش مع تدلّله بحب زوجته يكره منها شيئاً واحداً:

أنها تعرف أن تفك الخط، فقد عد ذلك خروجاً على التقاليد الصالحة، فأصدر أمره إليها أن تكف عن مزوالة هذه البدعة؛ بدعة القراءة والكتابة، فليس عليها أن تشغل نفسها بما لا ينفع، إذ أن فك الخط، من أعمال الرجال، فلتتركه له وحده!

وانطوت الأيام والشاويش د أحمد فرقع، يحيا حياته

الراتبة هذه في رضا وارتياح. كل شيء يسير وفق هواه.

ولم يكن ينغصه إلا أمر واحد هو الطابور الخامس،

إذ لم يصل بعد — بالرغم من بحثه واستقصائه — إلى كشف
ما يحوطه من غموض !

وشوهد الشاويش ، فرقع ، مرة عائداً إلى داره وهو
يحمل قرطاساً كبيراً من المشمش الحوى ، : تلك الفاكه الطيبة
التي لم تغمر السوق بعد ، والتي لا يحصل عليها إلا المقتدرون .
ودخل البيت وهو يعد الجملة التي سيقابل بها زوجه :
« انظري يا رواج ماذا أحضرت لك ...؟ أي الرجال جاء
إلى أهل بيته بمشمش حوى ١٩ ،

ولكن لم تقع عينه على زوجه ، فصاح يناديها ويكرر النداء ،
فلم يجبه أحد ، فوضع القرطاس بجوار الباب ، ودخل يبحث
عن زوجه وهو يهمهم :

لماذا لا تردّين علي يا رواج ١٩
وطاف المنزل . فلم يجد أحداً ، فوقف وسط القاعة ، وصاح
صيحة مدوية :

تعالى هنا يا رواج ...! إنى أكره هذا المزاج !
وأخيراً جلس على المقعد يجفف عرقه ...
لعلها تكون قد خرجت لتفسي حاجة ، ولكن كيف تعصى
أمره وتترك المنزل ١٩
وقام ثانياً ومضى يناديها ، وقد انتفخت أوداجه ...

ووقع بصره بغتةً على خزانة ملابسها فوجدها مفتوحة ،
فهرع إليها ينظر فيها ، فألفاها خالية من الثياب ... ١
واندفع في لمح البصر إلى الصندوق الصغير الذى يحوى
حليها ، فلم يجد فيه شيئاً ، فانسعت حدقتا عينيه ، وانطلق
ينغمغم فى خلط :

أيسكون اللصوص قد انتهبوا البيت ؟ ... ولكن رواج ..
أين ذهب ؟

ورأى فى قاع الصندوق بعض أوراق متناثرة ، فأخذ واحدة
منها ، فألفاها رسالة ماكاد يقرأ منها سطرأ حتى دارت الدنيا
أمام ناظره ...

أبعد الرسالة عن وجهه ، ولكنه ما لبث أن أداها من عينيه ،
واندفع يقرأها ، وأخذ أخرى وتنفسه يزداد اضطراباً ، ثم ثالثة
ورابعة ...

وقام يروح ويحنى فى عرض الحجرة ، وهو لا يفتر يسائل
نفسه ويكذب عينيه ، وشاهد غير بعيد منه قرطاس المشمش ،
وكأنه ينظر إليه يسأله :

ما الخبر ؟

فركله بجذاته الثقيل ركلة بعثرت ما فيه ، ثم عاد إلى الصندوق ،
ومضى يجمع الرسائل ويعيد تلاوتها ...

يا لله من هذه الجبل المنمقة التي ينبعث منها عطر الغرام نائراً
فَوَّاحاً ...

ويا لله من هذه المواعيد الجريئة التي لم يكن يخطر على باله أن تقع ...
وأخيراً يا لله من هذه الأسماء التي تُخْتَمُّ بِهَا الرسائل ... إنه
يعرف أصحابها ، كلهم أصدقاؤه ، ضيوف قهوته ، زينة المدينة ، أشباه
المتعلمين ، من يعدُّونه بطلم ، ويغمرونه بكل مهابة وإجلال ... !
واقترش الأرض متربعا والرسائل تملأ حجره ...

وانسرح يفكر ، وطال تفكيره ..

ولمعت عيناه فجأة بوميض حاد !

في هذه اللحظة وحدها استطاع الشاويش « أحمد فرقع ، أن
يفهم ما خفي عليه فهمه من أمر « الطابور الخامس » ...
لقد اهتدى على ضوء تجاربه الخاصة إلى حل اللغز العويص !

البديل

نشأت ينم الأب والامّ، أعيش مع عمى فى منزل الأسرة
بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة
التي أروها . وقد أخبروني أن أبى قدمات وأنا رضيع ، أما أبى
فقد توفيت . ول من العمر أربعة أعوام ، فلا أذكر منها إلا
طيفاً خفيفاً ، قليلاً ما ألم بى ، وسرعان ما اختفى ، وكانت تعيش
معنا سيدة تدعى "السك عيشة" ، من أقارب عمى ، ولم تكن
بالمرأة المحببة إلى . هى نحيفة طويلة صموت جافية الطبع ، لها
نظرات كريمة وابتسامة عاطفة تبعث الاشمزاز فى النفس .

وكان عمى يعاملنى بغلظة ؛ ولكنه يشعربى بعض الأحيان
بشئ من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه فى التحفظ ،
ودقنه البالغ فى النظام ، وهو يبلغ الستين ، مديد القامة ، حاد
النظرات ، يسير فى خطوات عسكرية متناقلة ، يلنزم فى حياته
نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه ، فلا أتذكر أنه تأخر مرة عن موعد
الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمام مكتبه غارقاً
فى أبحاثه القضائية ..

كنتُ في ذلك الوقتِ في مستهلِّ الإجازة الصَّيفيَّة ، أقضى
يومي إما في حديقتنا الصغيرة : أتسلقُ الشجر مع أولاد الجيرانِ
أو ألعب معهم بالكرة .

وبينما كنَّا نلعبُ ذاتَ يوم بالكرة أمام الدار ، إذ رأيتُ
سيدةً تحترقُ الشارعَ ، فلما رأتنا تنقادفُ الكرة ، وخشيتُ
أن يصيبَها منها أذى ، سارت على الطَّوارِ بجوار الحائط متجنِّبة
مرماها ، كانت حسناء في مقتبلِ العمر ، ذاتَ شعر أصفرَ
يلع لمعانَ الذهب ، تجذبُ الأنظارَ بأناقيتها وزينتها ، وتمسكُ
بعضاً في يمينها تعبت بها يمينهً ويسرة .

وما هي إلا أن كَذَفَ أَحَدُهُم الكرة فانطلقت صوبَ
السيدة ، وكادت تصيبُها لولا لحاقِ بها وتحويلِ اتجاهها ، ونظرت
إلينا السيدة نظرةً بين الغضبِ والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها
يقع علىَّ حتى توقَّفت عن المسير وأخذت تلاحظني ، ثم ابتسمت
لي في رفقة ، فلم آبه لها ، واستأنفتُ لعبي ، ورأيتها واقفةً
مكانها بضعَ دقائق تبغى بنظرها المشغوف حينما تنقلتُ .

وفي مثل ذلك الوقتِ من اليوم التالي ، رأيتُ سيدةً أمسِ
تسير على مقربةٍ منا في خطوات متمهِّلة ، فما إن وصلت إلى
شجرةٍ على جانب الطريق حتى وقفت في ظلِّها ترقبنا ونحن
نلعب ، وشعرتُ بها تحضني — دون رفاق — بنظرها . وبعد

برهة لمحتها تشير إلى يدها تستدعيني إليها ، فلم أستجب ،
وواصلت لعبي ، وظللت السيدة تلاحظني في اهتمام ، فضايقتني
هذه الملاحظة بعض المضايقة ، فارتبكت ، وهجم على وقتنذ
زميل أوقعني وانتزع الكرة مني ، ورأيت السيدة تسرع إلى ،
وتساعدني على النهوض ، وتنفض التراب عن ملابسى ، ثم انتحت
بي ناحية وسألتنى :

هل أصابك ضرر ؟

فأجبته : كلاً ...

وأخذت تدق النظر في ، ثم قالت :

يا لله .. أنت مجروح !

— مجروح ؟

— جرح خفيف ... خفيف جداً ...

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربني ، فأصغيت لها ...
وأخرجت منديلاً ، وأخذت تمسح جرحى ، وتجفف عرقى ،
فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشنى ، وقالت لى :
أأنت الآن أحسن حالا ؟

— لم لا أكون أحسن حالا وأنا لم أصب بضرر ؟

فابتسمت ... وشعرت بأن إجابتي كانت جافة ، ورفعت
بصرى إليها ، فوجدتها تحدق في وقد بدا عليها حشؤ غريب ...

— ١٧٥ —

فاختلج قلبي ، وقلت :

نحن نلعبُ بالكرةِ دائماً ، وكثيراً ما وقعنا .

— أين تسكن ؟

— هنا .

وأشرتُ إلى منزلنا ، وجعل أحـدُ رفاقي يناديني :

واصفُ ... واصفُ

فقالَت السيدة :

أهو اسمك ؟

— نعم ...

فأخضتُ على جيبيني ثقبـه ، وأمرتُ يدها على رأسي لتلاطفه ،

ثم قالت :

انطلقْ إلى أصدقائك يا حبيبي .

وانطلقتُ ألعب ... أما السيدةُ فشيعةً شتى بنظرةٍ طويلة ،

ثم تابعتُ سيرها بطيئةً الخُطَا .

وفي المساء اجتمعتُ كعادتي بعـمـى ، و« الست عيوشة » ،

على مائدة العشاء ، وكان الصمتُ مخيماً علينا ، كشأنا في كلِّ

ليلة ... « الست عيوشة » ، في جلوسيتها العسكرية لا يفارقُ

وجهها الطَّبَّق ، تتحرك كأنها آلةُ بُزْهْرُك ، وعمسى بملاحية الصُّلْبَة ،

ورأسه المرفوع ، لا تغادر عينهُ الجـيـدة ، ولا يباد لنا حرفاً ...

— ١٧٦ —

وأخيراً نظر إلى « الست عيوشة » ، وقال لها :
أسعنت بجاتنا الجديدة ؟
فتقاص وجه « الست عيوشة » ، وقالت ، وجسمها لم يتحرك
قيداً أنملة :
أية جارة تعنى ؟
فابتسم عمى ابتسامته النكراء ، وقال :
جاتنا الجديدة التى سكنت منزل المرحوم ووف بك فى الشارع
المجاور لشارعنا
وصمت « الست عيوشة » كأنما أخجلها أن يغيب عنها
هذا الخبر .
فقال عمى :
يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا ... إن خبرها شاع
فى حائوانا
فقالت « الست عيوشة » :
وما أمرها ؟
فأجاب عمى ، وما تزال على فمه ابتسامته النكراء :
إنها جاءت من الإسكندرية لتتشر فى هذا البلد الصغير
وباءها ... وباءها المهلك المييد ...
فحظت عينا « الست عيوشة » ، ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت :

— ١٧٧ —

أمرضة هي ؟

— أشد من مريضة ... إنها من النوع الهدّام الذي يخرب البيوت ، ويقوّض سعادة الأسر ... إنها ... إنها ...
ألا تفهمين ؟
— فاهمة !

— سمعت أنها كثيرة التبرّج ، ولها شعرٌ أصفر ، لا بد أنه مصبوغ ...

— مؤكد ... إنه مصبوغ !
— وقد رأوها تسيرُ بعضاً في الطريق .
— كيف ؟ ... أعجوزُ هي ؟
— أجل عمرها ...
— لا بدّ أنها تخفي سنّها تحت طلاء المساحيق الثقيلة ... يا لله ...
ما أبشعها ... !

وكان قلبي في أثناء ذلك يدقُّ دقّاً عنيفاً ، ووددت لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعتُ عمي يقول :
أرأيت سيّدةً تسيرُ بعضاً في الطريق ؟
فقلّصت « الست عبوشة » ، فها مستنكرةٌ ، وصمتَ عمي برهة ، ثم تكلم في حزم وتشدّد قائلاً :
أحرّم عليكم مقابلة هذه المرأة أو اتصالكم بها ... !

— ١٧٨ —

قالت «الست عيوشة» وقد زوت ما بين حاجبيها :
 معاذ الله أن نتصل بهذه الفاجرة !
 وقبل أن يترك عمى الحجرة التي على نظرة حادة كأنه
 يقول لى :
 أقام أنت ؟
 وعندما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا ، قلت
 «الست عيوشة» :
 عجيب أن يتعامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها !
 — وما شأنك وهذا ؟... أرايتها أنت ؟
 -- أنا ؟... كلا... ولكن خبرني ، إذا حدث مثلاً أنى رايها
 تسير في الطريق الذى أسير فيه فإذا أفعل !
 — تمهل رايها تخلى لك وجه الطريق .
 — وإذا رايها تقترب منى وتحاول أن تكلمنى ؟
 فرمقتنى «الست عيوشة» بنظرة فاحصة ، فاخرج قلبى . ورايتها
 تبسم بفتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :
 أراهن أنك رايها وكلمتها ...
 فانطلقت أنكر فى تحشس ، ولكنى أحسنت أن إنكارى
 ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورايت نفسى بعد حين أقول
 «الست عيوشة» :

اقسم بالله العظيم انى لن اراها ، ولن أكلّمها بعدَ اليوم ...
لا تخبرى عمى بشىء ا
وتشبّثتُ بجلبابها مسترحماً ؛ فوقفتُ صامتةً تحدّجنى
بنظرها البغيض ، ثم سارت مُتشدّة الخطّواتِ مرفوعةِ
الرأسِ إلى حجرتها .

* * *

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تقادياً من
احتمال مقابلتى تلك السيدة ، أما عمى فقد ذكرها مرةً أخرى
ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سُخط وثورة ...
فألنى ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزعجُ بنفسه فى كل أمر ،
ويريد فرض سلطانه على كل إنسان ا
وفى اليوم الرابع خرجتُ إلى الطريق يدفعنى أمل غامضٌ
إلى لقائها ، وتجاهلتُ ما أمر به عمى ، بل شعرت بشىء من الزهو
والسرور فى تحدّيه ، وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب
ظهورها .

ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرتُ إلى الشارع المجاور حيث
منزلُ د. رءوف بك ، الذى تسكنه . فلما اقتربتُ من بابه وقع
نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت تقطف الأزهار ، ووقفتُ أمام
الباب ساكناً ، أنظر إليها وأنا مفتون بجهاها ، ذلك الجمال الذى

يَغْنُصُ قَلْبِي بِخَوْهٍ وَعُطْفِهِ وَطَيِّبَتِهِ .
 كانت تنتقل بين شجيرات الورد في ثوبها البديع ، وشعرها
 الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل إليّ أني أشاهدُ مَلَكًا من
 سكانِ السماء ...
 ولأمر ما ، لفتت وجهها ناحية الباب ، فرأيتني ... ولشدة
 ما كانت فَرَّ حَشُها
 فألقت بِزَهَرِها على الأرض ، وهَرَوَاتْ إليّ ،
 وهي تقول :
 واصف ! ... تعال ... أدخل يا حبيبي ... أدخل .
 وحوطتني بذراعها وقبلت رأسي ...
 يا لله من ذلك الشعور الغامض الذي أحسستُ به في تلك
 اللحظة ! ...
 وأخذت يدي ، ودخلت في الحديقة ، وجمعت ما انتثر
 من أزهارها ، وقدمته إليّ وقالت :
 اختر لك منها ما تحلو ...
 وأخذت تساعدني في اختيار أحاسنها ، ثم قدمت إليّ
 الصُحْبَةَ وهي تقول :
 هي لك يا حبيبي !
 وكان في الحديقة دَكَّةٌ جلست عليها وأجلستني بجانبها ،

وجعلت تحدّق في وجهي طويلاً وتمسّحُ رأسي ، واكتسَى
وجنّهُهَا بالحزن ، ورأيتُهَا تَمَسّحُ عَيْنَيْهَا بحركة
خَفِيفَةٍ ، ثم قالت :

لماذا لم تلعبْ بالكرةِ مع أصحابِكَ في ثلاثةِ الأيامِ
الماضية ؟ ...

فطأطأتُ رأسي وقلت :

كنت متوجّعاً قليلاً ... ولكن من أخبركِ بأنّي لم أظهر في
هذه الثلاثةِ الأيامِ ؟ ...

— ذهبتُ بنفسِي حيثُ تلعبون ... وكنت أنتظرك
كلَّ يومٍ ...

فمنجبت من هذا الاهتمام ، وشعرت بشيءٍ من الخجل ...
ووقع بصري في هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرتُ أمراً
أشعرني بخوف ، وتلفّفتُ حولي فرأيت ظِلَّةً بعيدة عن الأنظار ،
فرفعت بصري إلى السيدة وقلت لها :

ألا يُمكنكِ أن تجلسَ في هذه الظلّةِ بعيدتين
عن الباب ؟ ...

فابتسمت لي ابتسامة لطيفة ، وقالت :

مارأيكِ في أن ندخل المنزل ؟ ... لدى شيءٍ أريد أن
أريك إِيَّاهُ !

وقامت وهي ممسكة بيدي ، وسارت بي إلى المنزل وأنا طائع ،
وأجلستني في الردهة الداخلية ، فإذا بها حسنة التنسيق بديعة
الأثاث ، مزينة بصور كثيرة ، وفي ركن من أركانها
« بيان » كبير ، وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقاً جميل الصنع
عليه نقوشٌ طريفة ، وفتحتنه أمامي فوجدته يحوي مجموعة
منوعة من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن ، وقالت لي وهي
تقدمه إلي :

كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك .
فمظم الأمر علي ، وقلت متلعثما :
كلا ... هذا كثير !

فوضعت الصندوق علي ركبتي ، وقالت إذا لم تأخذه ساءني
ذلك منك .

— ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى ، وقالت لي :
افتح فمك ... افتح ... !

وفتحت فمي فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت تضحك ،
فانطلقت أضحك أنا أيضاً ... وبعد أن أكلت القطعة قلت لها
بلا تردد :

سأحتفظ بالصندوق لثلاث أكدرك ، ولكن سأبقية عندك ،

— ١٨٣ —

وسأخذ منه كلَّ يوم ما أحتاج إليه .
ف نظرتُ إلى مليّاً ، ثم قالت :
إنهم سيسألونك بلاريبٍ عمن أعطاك إياه ... فأتى أن أفكرَ
في ذلك !

ثم صمتتُ برهة ، وهى تحدّق فى ، وقالت :
أحبُّ عملك ؟

— أحبه قليلا ، ويحبُّنى قليلا !

— والسبت عيوشة ؟

— لا أحبها ولا تحبُّنى ... !

ونظرتُ إليها مدهوشاً ، وقلت :
أتعرفينهما ؟

فقالَت فى لهجة طيبيّة :

وهل من الصعب أن يعرفَ الجارُ ما يُهمُّه عن جاره ؟ ...

تعال ... !

وقتُ إليها ، فذهبتُ بي إلى « البيان » وجلستُ على مقعده ،
وأجلستنى على ركبتيها ، واحتضنتنى بإحدى يديها ، وأخذتُ
يدها الأخرى تنقرُ نقرأ خفيفاً على « البيان » فيصدُرُ عنه
نغم هادىٌ لطيف ، وأحسستُ فيها يلسُ رَأْسِي ويقبلُ شعْرى ،
ثم قالت فى صوت موسيقى هادى :

كان هناك طفلٌ يسألني دائماً أن أعرفَ له هذا النشيدَ ، وأن
أغنيه له ... طفل جميل كان يحبني وأحبه .. لجأنا ليلة زائر
كريمة ممقوت يلبسُ السواد ، مقنَّع الوجه بقناع حالك ، وانزعجه
منى ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...
فسألتهما وأنا أصدق أُمّى :

وأيّن ذهب الزائرُ بهذا الطفل ؟
فأجابت في صوتٍ مختلج النبرات :
ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائمة ،
سنذهب كلنا إليها يوماً ولا نعود ...
وتابعت : كلامها ويدها تنقر على «البيان» هذا النغم الهادئ
اللطيف :

سأغني لك هذا النشيدَ على يروقك ، كما كان يروق ذلك الطفل
العزير . كنتُ دائماً أجلسه هذه الجلسة ، فأحوطه بذراعي ، وألمسُ
شعره بغمي ، وأملأ صدرى بتعبير شعره الذهبي ... اسمع ...
اسمع ... !

وأخذتُ تغني الأنشودة في صوتٍ عذبٍ حنون ، ونغماتُ
«البيان» تصاحبُها في تناسقٍ جميل ، فيتكوّن من أمّ مزاج الصوت
بالعرف وحده تامّة ؛ حتى إن السامع ليصعب عليه أن يفرّقَ
بينهما ، فيخيّل إليه أن «البيان» هو الذي يغني ، أو أن السيدة

نفسها هي مصدر ذلك النغم . تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !
 أى شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت ؟ ... شعور
 عذب شَمِلَنِى بِاطْمِئْنَانِ هَادِى لَطِيف .. شعورٌ أثار بين جوانحى
 ذكرى محبة لمشاهد منزوية حرمتها من قديم ...

وبينما أنا على هذه الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها
 مرتاعة . قَالَتْ مَتَّ — وكان الغسق قد أخذ يشيع فى الحجره —
 فوقت عيني على شيخ بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرت
 إلى ذمى على الفسور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى يلبس
 السواد ، ويقنّع وجهه بنقاب حالك ، ذلك الذى اقتحم منزل
 السيدة فى إحدى الليالى وانتزعَ الطفل الذى تحبه ويُحبها من بين
 أحضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد ... فصرخت :

كلا ... لا تأخذنى ... !

.. وأنيرَ المكان ، ورأيت عمى يسير نحونا بقاءته المديدة .
 وخطواته المتثاقلة ، عبوسَ الوجه ، يصوّب إلينا نظراته الحادة ،
 وسمعته يقول :

ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبقَ يده على يدي بشدة ، وقال لها :
 كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناءِ الناس ؟ ...
 أنسيتِ من أنتِ ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتُسند يدها عليه ،
وكانت تبدو عليها سمات الشبل والترفع ، وقد استطاعت
في لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملايحها
ثم قالت له في صوت شبه طيحي :
كلاً يا سيدي ، لم أنسَ ولن أنسى من أنا ومن أتم ، وإذا

كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ما هو غزلي ومزربي
فصدّقها ، ولكن هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك في
شأن هذا الغلام ...

فرن صوت عمّي قائلاً

عجيبٌ أمرٌ مع هذا الغلام !

... خفف من حدّتك يا سيدي ، فليس أماناً الآن ما يثير
الغضب إلى هذا الحدّ ... إن هذا الغلام غلامكم ، وليس لي فيه
أى حق ...

— حق ؟ ... هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت في صوت خافض :
ألا يمكننا أن نتفهم الأمر ؟ ... تفضل بالجلوس بضع دقائق ،
ولا أطلبك أن تطيل !
فقال عمّي :

أفضل الوقوف ... تكلمني من فضلك وأوجيزي !

خلعت السيدة حليةً مستديرةً دقيقة الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاةً على صدرها تصلها بربقتها سلسلة ، ثم فتحتها وقد متها إليه وهي تقول :

انظر في هذه الصورة !

فتناول عسى الحلية : ونظر فيها ثم قال :

واصف ! ... صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوًحياً . فقالت وهي ما تزال تبسم ابتسامتها الساكنة :

كلاً يا سيدي ، ليس واصفاً . دقق النظر في الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يغيبَ عنك ...

— إذن ؟ —

— هذه الصورة لم تفارق صدري منذ فقدته ... لن أنسى ما حيت ليلته الأخيرة معي ؛ تلك الليلة التي قضتها في أحضانك ينظر إلى بعينين محموتين ولا يملك أن يتكلم ... لقد مدّ الموتُ إليه يده الظالة فانتزعه من صدري بلا رحمة !

وشعرت يدي عسى تضطرب وهي تمسك يدي ، ورأته يسأل سألته المقتتلة ... ومضت السيدة في قولها :

لقد أصبح فقدته جرحاً عميقاً في فؤادي ؛ ثور على تأثرته بين حينٍ وحين ... آه ! ... شدة ما كنت سعيدة به ... شدة ما كنت

فَخَوَّرَ ابْنَهُ ... ١

وَرَأَيْتُ عَمِّي بِتَحْرُكٍ ، لِيَعْتَدِلَ فِي وَرَقَتَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ صَامِتًا
يَسْتَمَعُ بَانْتِبَاهٍ . . .

وَتَابَعَتِ الْمِسِيدَةُ قَوْلَهَا :

وَعِنْدَ مَا حَضَرْتُ إِلَى حُلْوَانٍ ، لِقَضَاءِ فِصْلِ الشِّتَاءِ ، سَأَلْتُ
الْمُقَادِيرَ إِلَى وَاصِفًا : فَكَأَنَّمَا بُعِثَ ابْنِي إِلَى الْحَيَاةِ ... رَأَيْتُهُ يَعُودُ
إِلَى بَعْدِ طَوَّلِ اغْتِرَابٍ !
وَسَكَتَتْ ، وَقَدْ أَخْفَتَتْ وَجْهَهَا فِي الْمُنْدِيلِ : وَبَعْدَ حِينَ
مُهْمِتٍ قَاتِلَةٍ :

وَالْآنَ يَا سِيدِي ، لَيْسَ عِنْدِي مَا أَقُولُهُ بَعْدَ هَذَا ...
وَوَقَفَ عَمِّي بِدَوْرٍ بَعِينِيهِ أَمَامَهُ فِي حَيْرَةٍ وَاضْطِرَابٍ ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَرْفَعْ بَصَرَهُ إِلَيْهَا .
وَوَضَعَ كَذَلِكَ وَقْتًا يَحَاوِلُ الْكَلَامَ فَلَا يَسْتَطِيعُ ، ثُمَّ اسْتَدَارَ
يَخْطُو إِلَى الْبَابِ ...

الترام رقم ٢

كانت الساعة الثامنة مساءً ، حينما تحرك الترام رقم ٢ ، من محطة العتبة ، ، قاصداً إلى نادى الألعاب ، فصعدت فيه فتاة ، واختارت لها جانبا من جوانب العربى استندت إليه ، وانطلقت تمضغ اللاذنين ، وتُجبل عينها بين الركاب القايلين المتناثرين على المقاعد ... كانت سافرة ذات وجه نحيف ، ينم عن ذبول وشُحوبٍ على الرغم مما يحمله من طلاءٍ رخيص .

وما إن وقع بصره التذكيرى ، عليها ، حتى عبس ، فتقدم منها وهو يقول :

تذاكر ...

فلم تُعِن الفتاة بقوله ، وطفقت تبسط ملاءتها الحاملة اللون ثم تجمعها ثانياً ، فظهر ثوبها الأزرق المبهلبل ، ذو الوشئ المطفاة اللمعة ...

ورفع التذكيرى ، صوته الخشن ، تلبعث منه بواذر الشر ، وقال :

— ١٩٠ —

تذاكر... تذاكر... ا... ا...

ووقف أمامها وهو يحدها بنظرة احتقار، فابتسمت له ابتسامة
اختلطَ فيها التداثل بالتملق... كل ذلك في سداجة ظاهرة،
وقالت :

والتي نازلة في المحطة الثانية !...

كل يوم على هذه الحال... نازلة في المحطة الثانية... والله إن
لم تدفعى، قذفتُ بكِ من العربى... !
— لك حق... أنتظر قليلا... ليس عندى نقود صغيرة...
— كلمة واحدة :

إما أن تدفعى، وإما أن تنزلى !...

ودارت عين الفتاة في سرعة بين الجالسين، ثم حطت على شاب
يبدو فى أناقة رخيصة، يحمل كتابا مدرسية بين يديه، وكان جالسا
قُبلاتها على المقعد.

مالَتْ عليه الفتاة فى تكسر، وقالت وهى تُقرِّع باللادن
فى فها :

ألا تفرضنى ستة مِليمات يا افندى ؟ ...

فوزجَر « التذكرى » :

ما هذه الوقاحة ؟ ... أتركى الركاب فى حالهم ...

فقالت، غير ملتفتة إليه :

ما شأنك في ذلك ؟ ... الافندى راض أن يقرضني ثمن
التذكرة ... ١

وابتسم الشاب ابتسامة رحيبة ، وأمال طربوشه قليلا
إلى حاجبه ، وأخرج المليمات الستة ، وناول « التذكري » إياها ،
فأعطاه التذكرة ، وترك المكان ثائرا ، فشيعته الفتاة يصيحك
استهزاء وتماجن . ثم انكأَت على سناد المقعد ، وقد شاعت في
وجهمها فرحة الفوز ، وقالت :

مجنون ... ١ والنبي مجنون ... ١

وسرعان ما اشتبكت مع الشاب في حديث طويل ...

* * *

مضت أيام ... وتحرك الترام رقم « ٢ » ، منجها إلى « القلعة » ،
وكانت الساعة السابعة مساء حينما عبر جسر « الزمالك » الكبير ،
وأخذ يخترق حي « بولاق » ، فبدت الحوانيت والقهوات على
جانبي الطريق في أنوارها المختلفة كأنها ترحب بمقدمه ... ١

وما إن دنا الترام من محطة « أبي الملاء » ، حتى قفز
« التذكري » ، منه ، وسرعان ما ابتلعت الزحمة ، ثم رجع بعد هنيهة
يحمل رغيفين يتصاعد منهما الدخان ، متفخين بأرز وأشتات
من لحم . فأعطى للسائق رغيفا ، واستبقى الآخر لنفسه ... ١
وانطلق الترام وميد السير ، وانهمك الرجلان فيما بين

أيديهما ، غافلين عن التنازين والصاعدين ... فلم يكن يُسمع
إلا صوت الزمارة تزعق بصوتها الحاد بين حين وحين ، وحركة
الترام وهو يقف ثم يسير ...

والتهم كل من « التذكري » والسائق نصفَ رغيفه ، وشعر
« التذكري » بأنه أطال وقفته ، وخشى أن يباغته المفش فترك
مكانه ، وتقدم مخترقا الدرجة الأولى ، والرغيف في يده يقضم منه
قضماتِهِ المعبودة ... وكان في أثناء ذلك يوزعُ التذاكر ،
ويقبضُ النقود ، وينفخُ في زَمَارَتِهِ ، ويصرخ بأعلى صوته ...
هذا ، ورائحةُ الرغيف الساخن ، بلحمه وأرزهِ ، تتقدمه لتداعبُ
أنوف الركاب ...

ودخل ، التذكري ، الدرجة الثانية ، فوقعت عيناه على الملاءة
الناصلة ، وانثوب الأزرق ذى الوشى الشاحب ... فابتسم ابتسامة
كأنها تكشيرُ الذئب ، قابلتها الفتاة باستسلام لا يخلو من
إهمال ، وقد انسعتْ طاقنا أنفِها تستقبلان رائحة الرغيف ...
وصاح « التذكري » في حشرجة ، وفه عتلى :
تذاكرا ...

ووقف الترام هذه اللحظة في محطة « الإسعاف » ، وصعدَ
فلاح يحمل خُرْجاً ، واندفع إلى حجرة الدرجة الأولى .
فرماه « التذكري » بنظرة احتقار ، وصاح به :

— ١٩٣ —

هنا يا حضرة ... هنا ... !

وكان «التذكري»، قد اقترب من الفتاة، فقال لها في لهجة حازمة:
تفضلي وانزلي ... !

وكانت عينا الفتاة لا تبرحان الرغبة طوال الوقت،
أو بالأحرى ما فضل منه... وانسرح فكرها، إلى ما يحويه من
حشو لذيق، وما يجده آكله من متعة. وهو يقضه لقمة لقمة
في تباطؤ، ويتلع على مهل ...

وتنبهت الفتاة على قول «التذكري»، لها:

ألم تسمى قولي؟ ... تفضلي وانزلي ... !

ولمحت الفتاة وقتئذ الفلاح صاحب الخرج، وقد أخذ
مجلسه على مقربة منها، وأخرج خرقة من جيبه فتحها وانكب
عليها يعد ما فيها من قطع النقود. فابسمت الفتاة له وهي تنثني
في وقيتها، وقالت:

والنبي يا جناب العمدة، كم الساعة؟ ...

فأمسك «التذكري»، بكتفها الممزولة بشدة، وقال:

دعي الركاب وشأنهم، والزّمي الأدب ... !

ورفع الفلاح أنفه عن الخرقة، وتساءل مدهوشاً:

ماذا جرى؟

فقال الفتاة.

— ١٩٤ —

والنبي يا جناب العمدة كم الساعة ؟ ...
فجذبها بنظرة حادة ، وقال لها وهو يجمع أطراف خرقته ،
ويلفها برباطها الطويل :

لا أنا عمدة ، ولا أنا معى ساعة ... ابعدى عني ... !
وجذبها « التذكري » ناحية السلم ، وهو يقول :
واقه إن لم تنزلى في المحطة التالية قَذَفْتُ بِكَ من
الترام ! ...

وتشبثت الفتاة بدعامة السلم ، وابتسمت « للتذكري » ، وقالت
في استعطاف :

أقسم لك سأدفع ...
وتهمل الترام في إسيره ؛ إذ كان أقبل على محطة « المترو » ،
ولكن « التذكري » ، لم يهمل الفتاة ، بل دفع بها والترام ما زال
يخطو ، فسقطت على الطوار ، وهى تئن مولولة ... !
وما أسرع أن انعقدت حولها حلقة من المتسائلين والمتفرجين ،
وكثر اللغط ، وتطايرت الشائعات ، وازدحمت الحلقة ، وسمع
الناضج رجلا يقول بصوت واضح :

سليمة ... ! سليمة ... !

ورأوا شبح الفتاة بعد هنيهة يستند إلى يد الرجل ، وصاح
أحد الباعة الجوالين في وجه « التذكري » ، قائلاً :

— ١٩٥ —

ألا تخجل من إظهار قوتك على بنت ؟ ...

وصاح آخر موجها كلامه إلى الفتاة :

لا بد أن تشكبه للعسكري ... !

ومرت سيدة بالجمع المحتشد ، وكانت تسير في مشية منزمنة ،

وظايتها الترام رقم « ٢ » ، فالإن تينت الفتاة حتى عرقها ، فتمتمت

في تشف :

هذا جزاؤها ... !

وصعدت في مقصورة الحريم ...

ووقت الفتاة وهي تنفض عن ملامتها ما خلق بها

من تراب ، ولكنها ما كادت تفعل حتى خذلتها قواها ، فكادت

تهوى ، لولا أن تداركها الرجل الذي أسندها أول مرة ،

وسمعه يقول لها في تحن :

مالك ؟

فقال في صوت متخاذل :

لم أذق في يومى كله طعاما ...

وتحرك الترام ، و« التذكيرى » لم يبرح مكانه من العربة .

وكان واقفا ينظر إلى ما يمر تحت بصره من مشاهد ، ويصغى

إلى ما يطرُق سمعه من أقوال ، صامتا لا تنبس شفتاه بحرف ،

يقض بين وقت وآخر من رغيته في غير وعى ... وعندما

سمع قولَ الفتاة للرجل إنها لم تذق طعاما في يومها هذا ، نظر
إلى بقية الرغيف في يده ، ثم أمسك عن الآكل ... ١

* * *

اتتهت نوبة « التذكري » في عمله بالترام رقم « ٢ » ، فتركه في
« العتبة الخضراء » وسار في شارع « محمد علي » ، ثم انعطف بعد
قليل إلى « حارة المناصرة » ودخل القهوة التي يقضى فيها دائما
أوقات فراغه ، فرمى بنفسه على أحد المقاعد ، وطلب القهوة
وقصبة الطباقي .

وانطلق يحسنى القهوة ، ويحتذب الدخان على مَهَل ، وهو
صامتٌ جِيَّاشٌ الفكر :

أَيكون قد قسا اليوم على الفتاة بلامسوِّغ ؟ ... أأصابها جروح
أورضوض ؟ .. ولماذا تركت أن تشكوهُ إلى الشرطة ؟ ...
ومربذهنه طيفُ الفتاة وهي تبسم له في سداجة واستعطاف
قائلة :

أقسم لك سأدفع ... فتموجت على فمه شبه ابتسامة ضعيفة ... ١
وراح يعرض حوادثه معها :

رأها تبسط ملاءتها وتجمعها ، فيظهر ثوبها الأزرق ذو الوشي
الحلالي الضوء . وحدَّقَ طويلا في جسمها الرشيق الوديع وعيونها
المملوءة بالكحل ...

وشعر يدهزّه ، فاستيقظ ملتفتاً حوله ، فإذا بصديقه «فرغل»
قد اختارَ مقعداً بجواره جلس عليه جلسَته المنتفخة ...
وسمعه يقول :

ألا أخبرتني بحكايتك التي جرّت لك اليوم ؟ ...

— أية حكاية ؟ ...

— قيل إنك تشاجرت مع فتاة وقحة من المشرّقات ...

— إنها مسألة تافهة ...

— وسمعت أيضاً أن سيارة الإسعاف أخذتها .

فأمسك «التذكيري» ييد صاحبه ، وقال وقد تغضنت

جبهته :

أأخذها الإسعاف حقاً ؟ ... لا تقل ذلك ! ...

— الواقع أن البنت تستحق ما جرى عليها ... لقد أدبستها

خيرَ تأديب .

ثم أخذ يطلق من حلقه ضحكاتٍ عاليةٍ كريهةٍ ختمها

بسُعالٍ بغيز ...

وقدم في هذه الساعة بعضُ الرفاق ، فالتفوا حلقة حول الصديقين

ثم تصايحوا يطلبون «الضامنة» ...

* * *

انتهت سهرة «حنفي التذكيري» مع زملائه في قبوة «المناصرة»

قراءة منتصف الليل ... فسرى إلى مسكنه يجر قدميه المتعبتين ،
وظل في طريقه يُدَمِّدِم ساخطا ، لقد خسر في «الضومنة» فأطال
جلسته ليعوِّض ما فقد ، فتضاعفت خسارته ...

ووصل إلى الدار ، وصعد مسكنه في الطبقة الثانية ، فألقاه
كعادته مظلما صامتا ، تغشاه وحشة قاسية ، فأشعل مصباح
النَّفْط ، ودار به في المكان يبحث عن شيء ، وقد شعر بأن
معدته بدأت تستيقظ متصايحة ... وعثر على قدر الطعام
قابعة في أحد الأركان ، فرفع غطاءها وجعل يتشممها ،
ويتفحص محتوياتها ، ثم وقع بصره على الكأُتون المطفأ
منكمشا في عبوسه وخموله ... عليه أن يشعله كما يفعل كل
ليلة ، ثم ينتظر طويلا حتى يسخن الطعام ... وما لبث أن رمى
بغطاء القدر وهو يغمغم :

طعام كريبه ... لا يؤكل ... !

واندفع يسب «أم إبراهيم» التي رخصت - على الرغم من
شيخوختها وضيق وقتها - أن تقوم بما يوفر له أسباب الراحة في
مسكنه ، نظير أجر تافه تتقاضاه إياه في كل شهر ...

وخلع «حنفي التذكري» لبوس العمل ، ورمى به على المقعد ،
وارتدى جلبابه ، ثم طرح بنفسه على الفراش ...

وبدل أن يطلق عينيه للكرى ، راح يعرض حياة الوَحْدَة

الممضنة التي يحياها منذُ توفيت زوجته ... فكان يتنهد بين فترة وأخرى ، حتى غلبه النوم ، فانتقل إلى دنيا الأحلام ...

* * *

استيقظ « حنفي التذكري » من نومه ، وجلس على حافة فراشة يتمطى ، ويشاءب في شكل بشع ، ثم أشرقت على وجهه رويدا ابتسامة تحولت في سرعة إلى قهقهة صارخة . واندفعت مخيلته تعربد في بحور ولهو وهو يستعيد حُلماً شهباءه في المنام ... وقفز من فراشه ، وأخذ يرنو إلى القدر في حنان ... ولم تمض برهة حتى تأججت النار في الكانون ، وامتلات الغرفة برائحة الطعام ... وأطلق « حنفي » يده في القدر ، ثم أرسلها إلى فيه ... وتلاحقت حركته يده من القدر إلى فيه في سرعة ومهارة ... ثم تجشأ ، ومسح شاربه طويلاً وأشعل لفاقة ، وقصد إلى النافذة في خُطوات متكاسلة ، وراح يتطلع أمامه وهو ينفث الدخان متلعباً ... وحطت عيناه على نافذة في منزل جاره ، تبين له خلفها شابة مازالت في قبض النوم ، تروح وتغدو في الغرفة مهتمة بتنظيفها وترتيبها ... ورأها تضع القلة على رف الشباك في مهب النسيم ...

وترك « حنفي » النافذة ، ثم نظر إلى ساعته ، وما عثم أن قفز إلى ركن ملابسه ، فأخذ يرتدى لبسوس عمله في عجلة .

وهروا نحو الباب ، وما كاد ينغذ منه حتى رأى أم إبراهيم ،
مقبلة عليه تقول :

صباح الخير ياسى حنفى ...

فخدجها بنظرة حادة ، وأجاب :

صباح الشر يا أم إبراهيم !

— شر ؟ ... باسم الله الحفيظ ...

— شر ... طبعاً شر ، خدمة سيئة ، وحال كريبه لا يطاق .

— لم أسمعك تقول هذا من قبل ... ماذا جد علينا ... ؟

— حتى القلة لا تعرفين أن تضعيها على الشباك لتبرد ... !!

— ألم تحرّج على أن أفعل ذلك منذ أن وقع الإبريق الفخار

على رأس الافندى في الحارة ؟ ...

— دائماً تنسبين إلى ما لم أقبل لكسلك وغباءوتك ...

ولمس في هذه اللحظة صدره ، فوجد زرّاً مقطوعاً من أزرار

كسوته ، فزجر :

هذه ملابسى ممزقة مهملّة ... حال لا يطاق ... هذه آخر

مرة تطئين فيها عتبه غرقى ... أسامة ؟ .. آخر مرة ...

وأقلل البسّاب بعنف ، وانحدر على السلم يقفز قفزاً ، وهو

يرغى ويزبد ...

تسلم « حنفي » عمله ذلك اليوم في الترام رقم ٨٠ ، ومضى الوقت
والعربة في جيتة وذهوب بين « العتبة » و « شبرا » ، وهو في غُدُوٍّ
ورَوَّاح بين الدرجة الأولى والثانية وموقف السائق ... وفي
يده لوح الخشب المرصوفة عليه دقازر التذاكر المختلفة ، يدق
عليه بقلبه الغليظ ، ويصيح :
تذاكر ... تذاكر ...

واستند « حنفي » مرة إلى إحدى دعامات العربة ، وكان
الترام قد توغل في ضواحي « شبرا » ، وأخذ الرجل يسرح بصره
فيما حوله من حقول خضر يحمل شذاها إليه نسيمٌ هاديء وديع ،
ثم أطلق لفكره العنان ، وإذا به يسائل نفسه :
أحقا أن الإسعاف أخذها ... ؟

* * *

مرت بضعة أيام عمل « حنفي » أثناءها في خطوط مختلفة ،
ثم عاد ثانيا إلى الترام رقم ٢٠ ...
كانت الساعة العاشرة مساء حينما لمح « التذكري » الملاءة الناصلة
مستندة إلى إحدى دعامات العربة ، وكان إذ ذاك يحاسب أحد
الركاب ، فأحس النقود تختلج في يده ...
ولمحه الفتاة ، فأكفهر وجهها ، وتقدم هو منها ، متبرما صارخا .
فلم يسع الفتاة إلا أن تندفع نحو السلم تريد أن تقفز إلى الأرض ،

— ٢٠٢ —

ولكن ما كادت قدماها تقتربان من الدرج حتى وجدت يد
«التذكري» تشدها، وإذا به يصيح:

«أجنونة أنت؟... اصبري حتى يقف الترام في المحطة...»

وعادت الفتاة إلى مكانها وهي تقول:

أشكر لك هذه الرقة...»

فانفجر «التذكري» يقول:

«أنت لا تنفع معك رقة ولا شدة، مالك وللترام وركابه...»

أبني وبينك ثأر حتى تنغص على عيشي؟...»

وتدخل أحد الحاضرين، فأخذ «التذكري» يهص حادثة

سقوط الفتاة من الترام، وحضور الإسعاف لأخذها... فقال

الرجل «للتذكري»:

لماذا لم تأخذها إلى الشرطة؟ ..

— فكرة صائبة، فلأخذها إلى الشرطة، لانهى من مشكلتها...»

وذهب «حنفي» يتم دورته في الترام وما إن انتهى من قطع

التذاكر للركاب. حتى قصد في سكون إلى ركن من أركان العرب،

وقد علا وجهه سبب التفكير.

وبدأ الترام يتريث في سيره؛ لاقترابه من المحطة، وقفز إليه

المفتش بغتة؛ وشرع يستطلع أذاكر الركاب، وقصد «حنفي» إلى

الفتاة في هدوء، ودس في يدها تذكرة، ثم استأنف سيره؛

كأن لم يفعل شيئا...!

وأتم الترام شوطه إلى « القلعة » ، وبدأ شوطا جديدا إلى « نادى الألعاب » ، والفتاة فى مكانها مستندة إلى دعامة العربية ، تحتل النظر إلى « التذكرى » وتساءل نفسها : لماذا لم يأخذها إلى دار الشرطة ؟... أو على الأقل : لماذا لم يسلمها إلى أحد المساكر ؟...

أما الرجل ، فكان إذا أتم عمله ، مضى إلى ركنه ، واستغرق فى تفكيره...!

ورأته الفتاة يقترب منها ، فابتسمت فى وداعة ، وأسرعت قائلة :

سأنزل فى المحطة التالية...

فلم يجها ، بل وقف بجوارها مستندا إلى إحدى دعامات الترام ، ولزم الصمت وقتا. ثم سمعته يقول كأنه يتحدث نفسه : أين تسكنين ؟...

— لم تسألنى هذا السؤال ؟... أتريد أن تبلغ أمرى إلى الشرطة ؟...!

— أليس لك أهل ؟...

— أنا وحيدة فى هذه الدنيا...!

وطاودهما الصمت ... وترك « التذكرى » موقفه ومضى

إلى الركاب الجدِّدِ يقطع لهم التذاكر ، ثم رجع إلى مكانه بجوار الفتاة . فقالت له :

عملكم في الترام شاق ... أليس كذلك ؟ ...

— من الصباح إلى المساء ونحن لا تهدأ لنا حركة ، لقد حفيت

أقدامنا من طول المشي والوقوف ...

— كان الله في عونكم ...

— ألا يعذر المرء بعد هذا إذا ضاقت أخلاقه وفاردمه ؟ ..

— بالطبع ...

— وإذا عاد الواحد منا بعد كل هذا إلى داره ، ولا يحمد فيها

لقمة طيبة ، ولا فراشا مرتبا ، فإذا يكون حاله ؟ ...

— أين تسكن ؟ ...

— في المناصرة ...

— مع أهلك ؟ ...

— وحدي ... لا زوجة ولا ولد ..

وصعد الترام ركابٌ جدد ، فانتقل حنفي ، من مكانه ، وعُني

بقطع التذاكر . وكثر العمل عليه ، فظل وقتنا طويلا ينتقل في

الترام ، ويده تتحرك كالآلة من المحفظة ، إلى لوح التذاكر ،

إلى أيدي الركاب ... وبين فترة وأخرى تنطلق من الزمارة

صرخةٌ عالية ، فلا تدري أصرخة استغاثة هي أم زفرة مكدود ؟

وكانت عينا الفتاة طوال الوقت تتبعانه أينما تحرك ...
وما كاد الترام يقترب من محطة «أبي الصلّاء» ، حتى قفز
«حنّى» إلى الأرض ، وأخذ يركض صوب دكان من دكاكين
الحى ... وعاد بعد قليل يحمل رغيفا ساخنا محشواً بالآرز
واللحم ... وصعد العربة ومر بالفتاة ، فناولها الرغيفَ في
سكون ...

ونظرت إليه متعجبة ، ولكنه تابع سيره ، وانطلق يقطع
التذاكر ...

وتلاقت نظراتهما ..

وابتسما ...

* * *

انتهى عمل «التذكّرى» في الترام ، فلم يحفظته في العتبة ،
وسار في شارع «محمد على» ، ووجهته حارة «المناصرة»
وأحس دافعا يحفزّه إلى الالتفات خلفه ، ففعل ... ثم واصل
سيره ، وقد لاحت على وجهه ابتسامة مشرقة ..
ودخل حارة «المناصرة» ... وهو يُرهِف السمعَ إلى خفق
قدمين تتبعانه ...

ولما مر بالقهوة المعهودة ، حثَّ خُطّاه ، فلم يره أحد ...
ودنا أخيراً من مسكنه ...
ووقف بجوار الباب ينتظر ...

البومة تنعق

لا أدري لماذا عملت بنصيحة هؤلاء الأطباء الأغبياء ، وجئت هنا في الريف ، كنت أحسنُ حالا حينما كنتُ في مصر . لقد أكدوا لي أن بضعةَ أيامٍ أقضيها في الضيعة كافية لأن تعيد إليّ صحتي ، فالذي أشكو منه ليس إلاّ ضعفا عصبيا نتيجة للحمى الشديدة التي انتسابتني وكادت تقضى عليّ ؛ فالراحة ، والرياضة الهينة في الشمس والهواء الطلق ، والغذاء الصحي ؛ — علاجى الوحيد... هذيان... هذيان... من أين لي بالراحة وهذه البومة تنعق بجوار نافذتى ؟ ... لم أسمع للبومة قبل اليوم صوتا في هذه البشاعة ... إنى أرتجف عند سماعي لها وهى تلعُ في نعيمها كأنها تعلن للناس خبرَ كارثةٍ على وشك الوقوع... عملت المستحيل لأنحسبها بعيداً عن مسمعى فلم أفلح... إنها رابضة فوق رأسى رُبوض الفناء فوق رأس المحسّض... !

والهواء الطلق أين هو ؟ ... لقد مررت — وأنا آت بالعربة من المحطة إلى الدار — على بركٍ ومناقع ملأى بالجحيف المتفخمة

تتصاعد منها أبخرة حارة كريهة ... لن أنسى مطلقاً منظر إحداها...
كانت جثة طافية على سطح الماء... أتكون حقا جثة
لحيوان ؟ ... إنها شديدة الشبه بامرأة حبلٍ منفتحة السيقان ؛
امرأة بلا رأس ... أشعر بضيق تنفسى ... يخيل إلى أن حول
الدار جيفا شبيهة بتلك ... متراصة بعضها فوق بعض ، تحيط بها
وتحصرها ... ما أقبح رائحتها ؟ ...

نبضى مائة فى الدقيقة ... سأحاول تهدئة نفسى ... ولكن
النبض يتزايد ، وأخشى أن يقف قلبى دفعة واحدة ... لقد
حدّثونى حينما كنت صغيرا أن أبى مات فجأة وهو يصلى ... كنت
إذذاك فى الرابعة من عمرى ، ولا أذكره إلا فى ساعته
الآخيرة ... رأيتُه محمولا وكان وجهه ممتعا وأبى خلفه تبكى
وتصرخ ... فما إن وقع بصرى على هذا المنظر حتى هربت ...
جريتُ وأنا أرتعش ، وارتيمتُ فى أحضان مرضيتى وأنا أخفى
وجهى فى صدرها وأشفق ...

البومة ما زالت تنعق فى إصرار عجيب ... إنها تقطع على
سلسلة أفكارى ... ألا يوجد فى الدار بندقية تقضى على مابقى فى
حياة هذه البومة من أيام ؟ ...

الأيام مجدة فى السير ، وحالى تزداد سوءا ... أصبحت أخلاقى
لا نطاق ، وتصرفاتى عجيبة إلى درجة الشذوذ ... بهذا سمعهم

يهمسون ... لا أنكر أنى أكلف زوجتى بعض الأحيان أموراً
مرهقة؛ أقول بعض الأحيان . لا على الدوام . . ولكن علام
التذمر؟ ... إنها زوجتى ويجب أن تشاطرنى آلامى ... أتريد منى
أن أفضى الليل وحيداً أتقلب على فراشى وليس بجانبى
أحد يسهر على راحتى؟ ... لى أكره الظلام ولا أستطيع
النوم والمصباح مطفأ ... أريدها دائماً بجوارى فإذا شمعت
بالوحدة مدت يدي أتمسكها ... أنا لست خائفاً ... إنه لشيء
مضحك مخجل أن أفكر فى هذا ... مم أخاف؟ ... لا شيء فى
العالم يخيفنى ... ومع ذلك أنا أرتعش ...

لم يغمض جفنى بعد ... المكان هادئ ... ولكنه هدوء
يقلقنى ... أهنالك أنفاس أخرى تتردد فى الغرفة غير أنفاس
زوجتى؟ ... هذا ما لا أستطيع أن أجزم به ... أحس أن هناك
أصواتاً كالهمس ... كفحيح الشعابين ... لا يبعد أن يكون فى
الحجرة ثعابين فى هذا الوقت ... أو هناك كائنات غير
منظورة تسبح فى جو المكان ... كائنات لها أجنحة
كالخفافيش ...

لقد هزّزت زوجتى هذا عنيفاً حتى استيقظت ... شدّة
ما كانت بليدة فى نومها ... وقضينا وقتاً طويلاً ونحن نبحث
تحت السرير والمقاعد ... وفى جميع الأركان ... لقد قلبنا الأثاث كله

رأساً على عتب ... ثم ارتأت زوجتي أن تطلق البخور
لتطرد الأرواح الشريرة ، فضحكت من فعلتها وأنا أعيرها
بالجهل ...

* * *

كيف يجوز للشعراء المجانين أن يتغنوا بجمال الريف ؟ ...
أين هذا الجمال ؟ ... إنى أبحث عن جزء ضئيل منه منذ قدمي
هذا المكان فلا أجد شيئاً ... الخراب يحيط بي من كل جانب ...
مضى على الآن ما يقرب من الساعة وأنا عمدة في الشرفة . إن
ضوء الشمس لا يطاق ... أشعر كأن بصري يفقد من قوته ،
فأضطر إلى إغماض جفني ... أسمع منذ لحظة طائراً يصفق بجناحيه
ولكني لا أراه ... أئمة طائر محبوس يحاول الخروج فلا
يقدر ؟ ... تصفيق أجنحته مستمر ... أشعر بمحاولاته
المقيمة للفرار من محبسه ... إنه يثير أعصابي بهذه الحركة
الدائمة ...

الخادم يؤكد لي أنه ليس ثمة طائر محبوس في المنزل ... كلهم
يؤكدون لي ذلك أيضاً ... ولكني مازلت أسمع أجنحة تصفق ...
يا لله ... أكاد أختق ... يخيل لي أن الطائر قريب مني جداً ...
أكون مختبئاً في ملابسي ؟ .. إن جزءه جلبابي الذي فوق صدري
يتحرك حركة غير عادية .. إنه قلبي ... ينبض مائة وثلاثين

نبضة في الدقيقة ... ظهرت البومة في هذه اللحظة ووقفت على حاجر الشرفة ... إنها الجراء غريبة منها... لقد بدأت تصوت وهي ترمقني بنظرها الثابت الحاد. إن نظراتها أشد قسوة من صوتها... وأشعر كأنها تحترق شغاف قلبي، وتكشف عن أسرارى ... وهذه الالبسة الكريمة المرتسمة على متقارها الأعقف؛ إنها تسخر مني! أف! ... لم أكره في حياتي شيئا كرهى لهذه البومة! ... لقد أخذت حجرا كان في متناول يدي، وشرعنا ماقدفثا به، ولكن أخطأت الرمى فطارت إلى شجرة ليست بعيدة عني، وعادت إلى تحديقها الساخرونوعيقها المفرع ... لا يتسنى لي احتمال هذا ... سأتى بيندقية ولو كلفني ثمنها أن أنزل عن كل مامعى ... إن نبضى يكاد يكون عاديا ... لقد هبط من مائة وثلاثين إلى ثمانين! ...

* * *

أتراني قد ظلمت هذه السيدة التي أدعوها زوجتي بإحضارها معي إلى الريف؟ ... ليس لها أى متعة في هذا المكان الحروب الموحش ... إنها لا تتذمر ولكن وجهها ينطق بالشكاية الصامتة: ومع ذلك تراها مستسلية تبالغ في تدليلي وتمريضي ... مسكينة هذه المخلوقة ... ربما صارت أرملة عن قريب! ... أرملة؟ ... لا أدري لماذا نطقت بهذه الكلمة؟ ... وأى

وحى أوحاها إلى ؟... ولكن لم تكون مسكينة وهى أرملة ؟
أليس فى موتى راحة وسعادة لها ؟...

ما أكبر الانقلاب الذى اعترافا . ما زلت أذكر يوم رأيتها
أول مرة ... كانت أمام دارها تتحدث وتهاجن مع رفقته من
صُوبِجَاتِهَا ، ولم تكن قد تعدت السادسة عشرة - وكنت قد
أُتيتُ فى زيارة لآبيها . وتقدمتُ إلى وابْتِسَامَةُ الشَّبابِ المملوءةُ
حياةً وآمالاً تلتصع على وجهها . وذهبتُ فى إلى أحيث كان
والدها وبادلْتُها بعض الكلمات ؛ - كلمات غاية فى السخافة ؛
ولكنها كانت بدیعة رائمة عندى ، جعلتُ أستعيدُها طول
اليوم ... وبعد عامين من هذا التاريخ زُفْتُ هذه الفتاة إلى ...
وها قد مضت عشرة أعوام على زواجى منها ... عشرة أعوام
عشتها كبقية الناس . أو بالأحرى كبقية هذه الدواب الأدمية
التي تسير فى القطيع مطأطئة الرأس ذليلة ، والآن أتلفتُ
حولى فأجدُ زهرة الأمس الناضرة المشرقة أصبحتُ عوداً
جافاً مشققاً يهشم على مهل . يا للافقر الذى يعلو الآن
وجتيتها ! ... يا لهذه الابتسامة الفظيعة التي تلفظها شفتاها ، إنها
ابتسامة كريمة لا أستطيع النظر إليها ... أنكفى عشرة
أعوام لتحويل هذه الصبية البضرة إلى عجوز ينتظرها القبر بفارغ
الصبر ! ... أأكون أنا المستول عن كل هذا ؟ .. يا إلهى ! ...

إني لا أشعر بعطف عظيم نحوها ... إني أحياها في تمجيد وتعظيم
كبطلة من أبطال الإنسانية ... ولكن لم كل هذا ؟ ...
وأنا ؟ ... ألسنتُ أستحق من نفسى قبل كل شيء هذا العطف
وهذا التمجيد ؟ ... أما الذى احتمل هذه الحياة السخيفة المضنية
في هذه الدنيا الموبوءة المحجبة ...

* * *

إنها ليلة كريمة لا أستطيع أن أغمض فيها عيني لحظة . .
لقد أمضيتُ قبلها ثلاث ليال متواليات وأنا قلق ، أتقلب على
فراشى والنوم بعيد عني ، وفي القاهرة قضيتُ أيضاً ليالى بأسرها
وعيناي مفتوحتان أدورُ بهما في الظلام أطلب الهدوء لروحي
والراحة للجسم ، ولكن هيات ! ... أما هذه الليلة فيخيل لي أنها
أشد ليالي هو لا : نور المصباح ضعيف وزجاجته كدر .. لا بد
أن نستبدل به آخر أكبر وأنظف .. بدأت اليومة تنعق ...
ولكن الحفير تغدأ إرادتي ، فعاجلتها بطلقة أرذنتها قتيلة ... أشعر
بشيء من الراحة ... لقد مرّت ساعتان على قتلها ، فازداد الليل
صمتا وكآبة ... أشعرُ بحنين غريب لسماع صوتها ... وكلما
فكرت فيها ... وهى الآن ملقاة تحت نافذتي وعيناها مفتوحتان ...
أحس برودة في بدني ... متى يلقونها بعيدا عن المنزل ؟ ... لقد
اضطرت إلى أن أضيف لحاماً آخر فوق غطائي .. أأكون محموا

أم بدأ جو الليل يبرد ؟ ...

قضيتُ اليومَ كله وأنا منتظر ما فعله الخادم بالبومة ...
ها قد حضر ... لقد أذعن لما طلبته منه ... أحضرها لي محبطة وقد
وقفها على حاجز الشرفة وثبتها عليه ... لم يُفقد لها الموت شيئاً ...
يخيل إلى أنها على وشك الصياح ... سأعمل لها صندوقاً من
الزجاج ، وسأحتفظ بها دائماً عندي ... لقد أمرتُ الخادم أن
يأخذها ويضعها في خرق نظيفة ويضعها في مكان مأمون ...
لا أريد أن تأكلها القطة أو تشربها الفيران ...

الليل بدأ يسحب رداءه الثقيل على القرية ... أسمع أصوات بعض
الفلاحين وهم يتشاحنون ... ثم أذان المغرب ... ثم كان صمت ...
صمت ... صمت ... أكاد أجنّ من هذا السكون ... ألا توجد
ضفادع أو صراصير تبعث في هذا الجو الميت شيئاً من الحركة ؟ ...
فطبع أن يقضى الإنسان الحى أيامه في غياهب هذا المكان ؛
كما تقضى الجنة الهامدة أيامها في غياهب القبر ...

لقد طلبتُ البومة فأحضروها لي ، ووضعوها في ركن من
أركان الغرفة ... إنها مستقرة بهدوء في خرقها كطفل نائم
مستقر في لفائفه يحلّم أحلامه الذهبية ... زوجتي تقول إن
رائحتها لا تطاق ... ولكنني على العكس أستطيب هذه الرائحة ...
أشعر بهدوء غريب يشملني ، ورغبة مِلحة في النوم ...

أستطيع أن أقرر أنى أهدأ حالا من ذى قبل ... قضيتُ
الساعات الطوال صامتا أفكر ... فى أى شىء ؟ ... فى مصاير
الناس وأحوال هذا الوجود العجيب ... أهناك فرق كبير بين
أعظم رجل فى العالم وبين هذه البومة المكفنة فى لفائفها ؟ ...
منذ أيام أردت أن أصلى ، وما إن بدأت قراءة الفاتحة حتى مرت
بخطارى صورة أبى ، وهو مطروح بلا حراك على سجادة
الصلاة فلم أستطع إتمام صلاتى ... واليوم صليت صلاة طويلاً
والطمأنينة تغمر نفسى ... أشعر بأنى قد اتصلتُ بالله وقد
استغفرته لكثير من خطاياى ...

اليوم وأنا أقلب أشياء عثرتُ على « الزجاجة الصفراء
الصغيرة » ... كيف ؟ ... من وضعها فى الحقيبة قبل سفرى إلى
الريف ؟ ... إنها ملفوفة فى عناية غريبة ... لا يستطيع أحد أن
يلف القوارير هذا اللف المحكم غيرى ... إننى أطيل فيها النظر ...
لقد هُزئتُ إلى زوجتى أريد أن أسألهما عن وضع هذه الزجاجة فى
حقيبتى ... ولكنى ما كدت أفتح فى حتى أطبقته ثانياً ، وعدتُ
أدراجى إلى حجرتى وأنا صامت أفكر ...
أحكمتُ إقفال الباب ووضعت الزجاجة على المائدة بالقرب

من البومة المخططة ، واعتمدت برأسي على يدي ، وأطلقت
العنان لخواطري ...

لقد أكلت الظهر بشهية أدهشت زوجتي ... وكنت فرحاً
أحدثها بمختلف الأحاديث ، وأماجئها بفكاهات ونوادر ...
يحق لها أن تعجب من كل هذا ... إنها تستبشر وتقول :
إن صحتي تتقدم في أطراد ...

وقبل المغرب بقليل حمل الخادم ، الكلب ، الذي أوصيته
باختياره ... كلب قد نهكته الشيخوخة وطحنه المرض ... جسمه
متأكل كأنه مصاب بجرَب ... ولا شعر يغطي جلده
المشقق .

أف لهذه الجيفة المتحركة ... إنه مطروح أمامي يتنفس في جهنم ،
ولكنه يرفع رأسه ويشم الهواء ويحاول أن يئصبس بذنبه ،
وعيناه الكدرتان المطبق نصفاهما تستجديان شيئاً ...
ما هو ؟ ... أليكون طعاماً يشبع معدته الخاوية . أم دواء يخفف من
آلامه المبرحة ؟ ... إذا قدر لهذا الحيوان أن ينطق فماذا
يجيب لو سألتُه عن الموت ؟ ... وهل يفضلُه على حياته
هذه ؟ ...

كنت أريد أن أوثق أقدامه ، ولكنه من الضعف بحيث لا
يستطيع المقاومة ، فضلاً على أنه مطمئن لوجودي ، ينظر إلى

دائما بهاتين العينين المستجديتين ... صبرا يا صديق ... ولكن
لا تتعبنى بهذا الاستجداء الممض ... لقد فتحتُ ، الزجاجية
الصفراء ، فتصاعدتُ منها رائحة قوية كرائحة السوائل الكاوية ...
إن صديقي الصيدلي الذي سرقتُ منه هذا السائل لم يحدثنى كثيرا
عنه ... لا يهم ... إلى أذكر حقا قوله لى : إن نقطتين تكفيان
لذلك أكبر صرح حتى في الوجود ...

لقد سكبتُ على لسانه نقطة واحدة ... واحدة فقط ، فإذا
بذلك اللسان الناحل يحترق ثم تملؤه طبقة كالغمام أو كالابخرة
كأنه يحترق .. لقد أطبق الحيوانُ فيه ... أو في الحق ساعدته على
إطباقه ... ثم وضع رأسه على الأرض ... تنفسه يبطيء بالتدريج
ويضعف ، ولا شكابة من ألم ولا أنين ... إنه يفتنى في هدوء
غريب ... وفي سهولة لم أكن أتوقعها ... يخيل إلى أنه يتسم ...

لماذا لا يبيحون للإنسان أن يتصرف في حياته كما
يشتهى ؟ ... ولماذا لا يساعدونه على ذلك ؟ ... أليس من العدل
مثلا أن تقام أندية نخمة تخصص للانتحار ؟ ... أندية تحوى
الغرف الوثيرة الرياش ذوات الألوان المختلفة ، يقصدها من
يرغب في القضاء على نفسه بالوسائل التي يختارها ، وفي الجو الذي
يطلبه ، ولم لا تمنح الحكومات الجوائز المالية الضخمة للمكتشفين

الذين يقدمون لها الأجهزة والعقاقير التي تعمل على إطلاق
الأرواح من محابسها ؟ ...

اليوم وأنا جالس في الشرفة - وغير بعيدة عن البومة
المخنطة - لاحظت أن يدي ترتعش ... لم يكن ذلك وهماً ...
إن قذح القهوة كاد يسقط مني ، وكادت القهوة تندلق على ثيابي ...
هذه ظاهرة جديدة لم أحسها من قبل ! ...

في رغبة ملحة في الصمت وفي التفكير ، لقد أمرتهم ألا يقربوني
وأضيت اليوم كله وأنا كالتثال أحرق في الأفق البعيد ، وأناجي
بين وقت ووقت بومتي المخنطة ، وأستلهم منها وحى أفكارى ، ولما
بدأ الليل يرخى ستاره قامت في رغبة مستمرة لأن أزور
المستنقعات ... هنالك وقفت طويلاً أمام الجيِّفِ
المبعثرة ... إن الكلاب تتألب عليها وتفنيها في سرعة غريبة ،
ولكن لا يلوح الصباح حتى يأتي الجديد منها ... هناك
حركة مستمرة على ضفاف هذه المستنقعات ؛ - حركة نشيطة
حقاً ...

أي دنيا هذه التي نعيش فيها ؟ ... إنها لشديدة الشبه بهذه
المستنقعات الملائى بالجيِّف والكلاب ...
والعجب أنى أرى أناساً يتكالبون عليها ... يا لكساكين ! ...
لقد خلا المنزل من جميع قاطنيه ، ولم يبق فيه سوى وبومتي

المحسنة ، إنها مثبتة على المائدة تحديق فيها بعيونها الفارغة ... إنها فارغة ولكنها عميقة ملأى بالأمرار ...

الجميع ذهبوا لحضور عرس ابنة العمدة ... ولقد شجعت زوجتي على الذهاب ... لقد أصبحت مطمئنة على ... المكان ساكن سكونا رائعا ، والليل الذي تنوالى هجساته على في عنف لا يُسمع فيه غير أصوات بعيدة ... بعيدة جدا ... أريد أن أحس الظلام يلفني ببياءته السحرية . أريد أن أحس راحة تنفذ إلى شغاف قلبي ... الظلام ... إنه القوة الحقيقية المسيطرة على هذا الوجود ، ولكن أي شيء يسكن خلف هذا الظلام ؟ ... هناك عوالم أخرى مجهولة تتطلب دائما رؤاذا ليكتشفوها ...

نقطتان فقط ... لا أكثر من نقطتين ... أريد أن أتمدد على الفراش بحيث يكون وجهي مقابلا لوجه ... البومة إنها آخر شيء أريد أن يقع عليه نظري .

تلك هي أول نقطة أضعها على لساني ... طعمه ليس كريها هذا السائل ... كالخمر المشقة ... بل أقوى من الخمر المعتقة ... أشعر بجسمي كأن النار قد بدأت تشب فيه ...

تلك هي النقطة الثانية ... إنني لأرى الأبخرة التي كانت تتصاعد من لسان الكلب الأجرب تتصاعد من جسمي كله ، كاتي سابع

— ٢١٩ —

وسطَ الغمام ... إلى أحرق ... ولكن في هدمٍ غريب ...
هدومٍ لذيذ ... ما زلتُ أرى البومة وحدها أو بالأحرى عينها
الفارغتين ... ها قد أصبحتُ يا صديقتي رائدا من جملة الرواد
العظماء ...

الدنيا الجديدة تنتظر قدومي ... الدنيا الجديدة بكنوزها العظيمة ...
بعضى يضعف ... الغيومُ تتكاثف ...

ليلة العرس

كانت مبهجة على غير مألوف عادتها ، فصفت شعرها ،
وتزينت على قدر ما تسمح به حالها ، لم يعقبها عن ذلك خمارها
المهمل ، ولا جلبابها البالي .

وخرجت أمام الدار ، والابتسامة تلوح على ثغرها ،
وجلست على الأرض بجوار المصطبة ... لم تجرؤ أن تعتليا ،
وتستمتع بملبس حصيرها اللامع ، المبسوط على سطحها ، وهل
تنسى يوم خرج إخوتها وأخواتها لآبيها ، وانطلقوا يلعبون على
هذه المصطبة ، فلما تقدمت للعب معهم ، رنت في صحن الدار
صبيحة زوج أبيها ، تلك الصبيحة المملأ بالحقد والكراهية ، ثم
رأت شبح أبيها نفسه على الباب ، وهو يلوح لها بعصاه الغليظة ...
منذ ذلك اليوم لم تفكر أن تقرب المصطبة ، حتى في هذا اليوم الذي
خلت فيه الدار من ساكنيها ...

لقد جمع الأب وزوج وأولادها ، وذهب الجميع إلى البلدة
يشهدون الاحتفال بزواج ابن العمدة .. أما هي فقد أمرت الأ
قرب الدار ، لتعبد البهائم والطيور ...

وهى على الرغم من كل هذا ليست مبتئسة ولا حزينّة ...
 إنها وحدها لا يضايقها أحد ... أليس هذا كسبا طيباً
 لها؟ ... لا نكايّة ولا استفزاز من بنى أبيها ... ولا اتهاز ولا
 إيذاء من الأب وزوجه ... هى وحيدة تستطيع أن تبسم
 وتضحك فى أمن وطمأنينة ... بل فى مقدورها أن تفعل أكثر
 من الضحك والابتسام ... ترقص أو ترقى إذا حلا لها الرقص
 أو الغناء ... !

إن البلدة التى بها دارُ العمدة ليست نائية عن بيت أبيها ، فهى
 تسمع صوت الطبل المبهج ، ونغم المزمّار الشجى ، غلظاً
 بالثليل والأغاريد ، يحملها إليها نسيم الأصيل ... ! وإنها
 لترنو نحو البلدة ، فتحشدُ فى غيلتها مناظر شتى مما يكون
 فى الأعراس ... جماهيرٌ مودحة ... هرج ومرج ...
 موائدٌ تزخر بأطيب الطعام ... ثم هذه الأنوار ؛ أنوارُ المصابيح
 الكبيرة ذوات الشعاع الأبيض الذى يهز الأبرار ... !
 كانت تنو إلى البلدة راضية مسرورة ، وهى ترتب بين
 الحين والحين شعرها . وتُسوي جلجلاً ، ثم تصغى ... وتصغى ...
 ولا تفتأ تصغى ... !

لقد أخذت الظلّة تنبسط على القرى بأسرها ، وراح النسيم
 اللطيف ينقلب هواء رطباً بارداً ، فلم تغادر الفتاة مكانها ...

بل اكتفت بأن جمعت ثوبها عليها ، وانكششت بجوار الحائط ،
وهي مازالت راتية نحو البلدة ، تسمع أصوات العرس من بعيد ،
وتصور لنفسها حفلة الزفاف ...

إن للعمدة ابناً ثانياً ، يكبرها بضع سنين ، وسيم الطلعة ،
يحمل طابع الرجولة ... وفي مرات متعددة رأته وهو ذاهب إلى
المدرسة في « البندر » ، يضح بالصياح والضحك ، على حمارة
الرشيق ، وخلفه غلام يحمل له الكتب . فكان في كل مرة
تقابلة فيها ، يلتفت إليها ويتسم ، فتجيبه على ابتسامته بمثلها ..
سوف ينسى هذا الفتى الأنيق دراسته ، ويتقصد منصبه
الكبير في البندر ، ثم لا يلبث أن يحضر إلى أبيها ويخطبها عروسا
له ، ويدفع لها مهوراً غالياً لم يدفعه ابن عمدة لعذراء قبلها ...
فإذا ما عرض عليه الأب أن يختار عروسة من بناته الأخريات ،
أصر الفتى على رأيه الأول ، ولم يجند احتجاج زوج الأب شيئاً ...
ويأتي العمدة نفسه . ويغمر المنزل بالهدايا . ثم تحل وشيكا
ليلة العرس بطلبها وزمرها ... بأغاريدها وطلقاتها النارية . بأنوارها
الوهاجة التي تعشى الأبصار .. بالحناء تخضب بها يديها وقدميها ..
بالموسيقى تتقدم هوذجها ، وهي تنصت لممس الجوع حولها :
« ما أبهى العروس في ثوبها الأحمر الموشى ! ... » ، بزوجها وهو
يتقدم الركب ، ويختلس إليها النظر بين لحظة وأخرى ! ...

— ٢٢٣ —

وهكذا مضت الفتاة تبصّحُ مناظر المستقبل حتى ثقلتُ
أجفانها واحتواها سباتٌ عميقٌ...!

* * *

عاد أفراد الأسرة من العرس يحملون ألوانَ الحلوى، ملفوفة
في ورق مفضّض، فظلوها يأكلون ويرمون الفتاة بالورق،
فتجمعه وتبقيه في يدها.. وانطلقَ الأطفالُ يتحدثون، كلُّ فردٍ
يروي حكايته عن العرس، والفتاةُ ملقيةٌ بالها إلى كل ما يقال...
وما إن أتموا حديثهم، حتى صاح أحدُهم يقول:
وأنتِ؟... أليس عندك ما تروييه؟...
فنشطتْ لامة العين خافقة القلب، تقول:
نعم عندي حكاية جميلة، عن عرس كبير...
— حكاية عن عرس كبير؟... ما هي؟
— هي... هي...

ووجدت الكلمات تتعثرُ بغتة على لسانها... وترايلت ابتسامتها،
ولم تنطق بحرف.

فثار الألفاظُ يضحكون...!

* * *

وذهب كل يتفقد مرقدّه، وقصدتْ هي إلى بركنها المعهود،
عن كتب من الجاموسة، وألقتْ بنفسها على كومةِ الحشيش.

ولما استبد النوم بأهل الدار، أخرجت الفتاة من الهشيم عروسها
البيالة المحشوة بالقطن، وأجلستها قُبالتها، واندفعت تروى لها
في حماس وتنميق قصتها الكبرى؛ قصة عرسها...
ورفعت الجاموسة رأسها وعيناها تلتصعان؟... ثم ما لبثت أن
مسحت نفعها اللامع بلسانها الشعباني، وأطلقت خواراً هادئاً تحي
به الفتاة، وتقول لها:

«هنيئاً لك يا بنية هذا الزواج السعيد...»
أما عروس القطن، فقد سحرتها روعة القصة، وحسن بيان
الفتاة ولم تفه بشيء، ولكنها مكثت تحديق صامتة في سيدتها
بعبونها السود داوت الأهداب العريضة، وظلت تصغي...
وتصني... ولا تفتأ تصني...!

على الحيات

كنا في فصل الصيف ، فاشتدت رغبتي في الخروج عصرا إلى منطقة « الجزيرة » ، لأقضي ساعة في حدائق « الأورمان » ، أنعم بين جداولها الجارية ، وتحت خاتلها الوارفة ، بذلك النسيم الرطب الفواح الذي حُرِمْتُ أن يزورني في مسكني العتيق بشارع « محمد علي » ، ١ ...

ركبت « الحافلة » رقم ٦ ، من ميدان « إبراهيم باشا » ، وكانت المركبة خالية ، وعامل التذاكر في الدرجة الثانية يراجع نقوده في خُمُول ...!

وما إن وقفت « الحافلة » عند المحطة التالية ، حتى شاهدت رجلا بدينا يدخل مُسْتَدَ الحُطَا ... عرفته في الحال ، وهل يجبه أحد ... ؟ كلنا يعرفه بشكله وحده ، وقد غاب عنا أن نسأل عن اسمه ... من ينسى هذا الوجه المطهَّم المشرب بالحمرة الدائمة ، وذلك اللُغْدَ « الأرستقراطي » ، المدلَّى على رقبتة ، وهذا الكرشُ الفخم الذي يسبقه في السير يفسحُ له الطريق ١٩ ...

لا أذكر مرة أنتى ذهبت إلى « جروني » ، إلا وجدته يملأ ركننا

بأكمله ، وأمامه أطباق الفطائر الشهية يأكلها في تلذذ ورضا . ولم أقصد إلى مطعم من المطاعم الشهيرة إلا رأيتُه منفردا بنفسه ، ومائدته تحفيل بالفاخر المتعدد من ألوان الطعام ، وهو يكرع بين الفينة والفينة من نبيذه الطيب ، فكنتُ أتأمله طويلا ، ثم أرمقُ على مفضل مائدتي عليها الدجاجة المسلوقة ، وزجاجة الدواء الكريه المذاق ...!

وقد اتصلت ببنى وبينه - لكثرة رؤيتي له - معرفة صامتة لا تتعدى التحية ، مشفوعة بالانساماة السائحة ...!

فإذ دخل المركبة ولحني ، حتى بادرنى بتحيته العابرة ، ثم جلس على مقعد قريب من الباب ، وقد اجتمع كَرشُه أمامه اجتماع الوليد في حجر أمه ...!

وكان يرتدى حُلة فاخرة من النيل الأبيض ، ولاحظتُ أنه يداعب بين فترة وأخرى من جيب سترته الأعلى سلسلة ذهبية ، تنتهي بساعة ثمينة من الذهب أيضا ، كان يتأملهما في عناية وشغفٍ ، فتأكد لي أنهما جديدتان .

وفي المحطة القائمة في حي « بولاق » صعد إلى المركبة رجل ضئيل الجسم ، أخذ يدور في المكان بعينه ، فما إن وقع بصره علينا حتى دخل الدرجة الأولى ، وجلس معنا .

واتضح لي من أول نظرة ألقيتها عليه إلى أي الطبقات ينتمي ...

كان في أناقة مبتذلة ، وله عينان كعيني الهر
الجشيع ، وعلى فيه ابتسامة رخيصة لا تفارق شفثيه ...
جلس ، ووضع ساقاً على ساق ، وأخذ يسارقنا النظر ، وإذا
أخرج صديق البدن الثرى ساعته ينظر فيها وفي علاقتها
مُعجباً فخوراً : - رأيت عيني الهر قد التَمَعَتَا
بوميضٍ تأثر .. !

منذ ذلك الوقت لم يحول الغريب نظره عن صدر صديق ، وكنا
قد دخلنا منطقة د الزمالك ، واستقبلنا نسيمٌ عطري لطيف أخذ
يداهبُ وجوهنا ، وألقيتُ الصديقَ البدنَ يسندُ رأسه إلى النافذة
ويطبقُ جفنيه . ولم تطُلْ به الحال حتى سمعت غطيظاً هادئاً يصدر
من ناحيته ! ...

وبسطتُ أمانى صحيفة د الأهرام ، ، وتظاهرتُ بقراءتها ،
وأنا أرقُبُ الهر مراقبةً دقيقة ... كانت حدقتا عينيه تدوران
في حركة عصبية ، فأدنيْتُ الصحيفةَ من وجهي وأنا أبتسم ، وقد
طغى على شعور طاريء ، وهو مزاج من غبطة وشر ! ...
وأحسستُ الغريبَ يتململُ في جِلسَتِهِ ، فأرحتُ رأسي
على النافذة ، وأطبقتُ جفني متناوماً ، وشاعت على وجهي ابتسامةٌ
ضافية ... وبعد فترة شعرتُ بالهر يدنو في حذرٍ إلى موضع
قريبٍ من صديق الثرى ! ..

وكان النسيمُ يهب مشبعًا بعطر الزَّهرِ العَبِيقِ ، فوجدتُني
أسترسِلُ في أحلامٍ هائلةٍ ، أعرض فيها مناظرَ مختلفةٍ من حياتي ،
كان يعترضها بين حينٍ وآخرُ جِسرٌ مُصْديقُ البدين وهو منمكٌ يأكل
طعاما ... أو شَبَّحُ الهر وهو يداعبُ بين أصابعه السلسلةَ الذهبيةَ
بساعتها الثمينة ...

ولم تمض فترة حتى ذهب عني التفكير في البدين وفي الغريب ...
واستغرقتني تأملاتي الخاصة ، وأنا منمَّعشٌ بصافي النسيم !
وأخيراً أحسستُ يدا تهزُّني ... فإذا عامل التذاكر يوقظني
وينبِّئني إلى أننا وصلنا إلى « الجزيرة » ؛ فتعجبت من سرعة انقضاء
الوقت ، وتأهبْتُ للنزول ... ووجدت أمامي صديقَ الثرى يتهادى
في مشيته ووجهته السلم ... أما الغريب فلم أعثر له في العربة
على أثر ...

وشعرت بدافع يحفزني إلى أن أسبق الثرى في النزول ، ومررت
به وأنا أرمق جيبَ سترته الأعلى ...

لقد اختفت السلسلة ومعها الساعة وعلت في ابتسامة
عريضة أخذت تتحولُ سريعا إلى ضحكة عابثة ، وتركْتُ
المركبة وقد أخذتُ من جيب سترتي منسدلاً أحبس به تلكَ
الضحكة ، أو أخفف من حدتها ، ولكن سرعان ما وجدتني
أتحسس جيبِي ثم اندفعت أفتش فيه باهتمام وذعر : أين قلبي

— ٢٢٩ —

«الباركر، الجديد الذى اشتريته نسيته، ولم أؤد من ثمنه إلاّ الدفعة الأولى؟...»

ووقفت أمسح وجهى المحققن، وأنا أراقب فى عطف صديق البدين، وهو يتهايل فى مسيره، وقد بدأ الزحام يحتويه . . .

* * *

وتواصلت الأيام...

وتوثقت بينى وبين صديق الثرى روابط صداقة متينة، فكنت أشاركه بسرور مائدته فى المطعم... وصرت لا أتأفف من دجاجى المسلوقة، ولا من زجاجة الدواء الكريه المذاق... !

الجتلمان

كنت وصديقي «عزوز» ، إذا طالت جلستنا في القهوة ، ورغبنا في تناول العشاء ، قصدنا «مطعم فورقاتلي» ، بشارع «عدلى» ،... وكنا نفضله على سائر المطاعم — بالرغم من صغره وتواضعه — لعنايته بإعداد بعض الألوان الإيطالية الأصيلة... وأعلن «السيور فورقاتلي» ، أنه سيحدث انقلاباً في مطعمه ، يتناول كل شيء فيه بالتجديد . وذهبنا يوم الاحتفال بافتتاح المطعم في مظهره الحديث ، فلم نرَ إلاّ تغييراً يسيراً سطحياً إذا استثنينا أمراً واحداً جديراً بالملاحظة ؛ ذلك أن «السيور فورقاتلي» رأى أن ينصبّ على مقربة من باب المطعم دُميّة من ورق مقوّى ، تمثل سيداً أنيقاً يحمل في يده قائمة الطعام ، وكانوا يسلطون على هذه الدمية نورا كهربياً تبدو به بهيجة تستوقف الأنظار .

ووقفت أنا أمل هذه الدمية ، فلم ترقى هيئتها ، على ما امتازت به من إتقان في الصنعة .

كانت هذه الدمية تمثل شخصية السيد المتظرف الأنيق
 « رجل الصالون العصري » ، وأنيس كل حفلة شائقة ، و« من » منا
 يجمل هذا المزهُو المتحذلق وهو يخطر في لبوس المحافل
 الرسمي ، ووجهه الأمر مستنير يشبه ابتسامة يختلط فيها الترحيب
 بالكبرياء ، وهذا « المونوكل » المثبت على حق عينه بمهارة خليقة
 بالإعجاب ، وهذه الشَّملة السوداء ذات البطانة الحريرية البيضاء
 يسطرها على كتفيه في تألق مصحوب بإهمال مقصود ، وأخيرا
 هذه اليد المكسوة بالقفاز الأبيض آخذة بعضاً مفضضة
 المقبض ، متلعبة بها . لبثتُ أتأمل الدمية وقتاً وقد شغلتنى
 شخصيتها عن قائمة الطعام الماثلة في يدها اليسرى ، ولكن « السنيور
 فورفاتي » جاء ينهني إلى أن عشاء الليلة يحوى غير « الاسبجتي
 النابوليتانية » صحناً من « الرافيولي » الفاخر ، ثم تركنا ليستقبل
 بعض رواد مطعمه . ومِائتُ على صديق « عزوز » أقول وأنا
 أشير إلى الدمية :

ما رأيك في هذا الصديق الجديد ؟ ...

— لقد أتى به « السنيور فورفاتي » ليستقبل ضيوف المطعم
 ألا ترى يده التي تحمل القائمة مشيرة إلى الباب ترشدنا إليه ؟
 — إنها طريقة جديدة في تكريم الزوار ؛ كأنني أسمعه يقول
 لنا وهو يدعونا إلى الدخول :

— ٢٣٢ —

تفضلوا يا سادة ... وبالسُّمِّ الهارى ... !
وتناولتُ عَشائى وأنا أزدردُ الطعامَ غيرَ شاعرٍ بمذاقه ؛
ذ كنت مشغول الفكر بهذه الدُّمية الحقيرة . وكيف تأتى
لها أن تظهر فى هذا اللباس الفاخر ، وألقيتُ مرةً بنظرة فى
المرأة أمامى فبدتُ لى حُلَّتِي الجديدةُ ... التى أدفع ثمنها أقساطا
شهرية — غيرَ جديةٍ بالشئ ... !

* * *

كنتُ كلما ذهبتُ إلى «مطعم فورقالتى» ، لقينى وجهُ ذلك
«الجتيلمان» الأنيق بابتسامته الكاسفة ، فيرشق كلُّ مِنَّا صاحبه
بنظرة عجل ، نظرة يتجلى فيها الاحتقارُ والزُّراية ، وما هى إلاَّ
أن أحوّل طرفى عنه ، وأنا أحتُ خطاى نحو الباب .
وجلسْتُ مع صديقى عزوز على مائدتنا المختارة فى المطعم ،
نتذوق حَسَاء «الميدسترون» اللذيذ . وبغته ، رفعتُ رأسى
وقلت :

لو كنتُ حاكما بأمره لَقَضَيْتُ على هذه الفئـة
الغَشُوم ...

فقال عزوز وهو منهمك يا كل :

أى فئـة تعنى ؟ ...

— فئـة هؤلاء «الجتيلمين» ، المزيّفين ... فئـة هؤلاء السادة

— ٢٣٣ —

المتعطلين . هاته الدى التى تخفى تحت مظهرها الرشيق رؤوساً
خاوية لا يسكنها إلا الصلف والازدراء بالناس ...
فأجابني « عزوز » وهو مازال منكبا على حسائه :
ولا تنس أن هذه الفئة هى زينة حياتنا الاجتماعية
العصرية ...

وأقبل علينا « السنيور فورقاتلى » يستطلع رأينا في حساء
« الميسترون » وقبل أن نجيبه بكلمة انطلق لسانه بحديث
كأنه السيل الجارف يصف محاسن هذا الحساء وجودة
طوبه ...

وصادفت « عزوز » مساء أحد الايام في القهوة ، فبادرنى
بقوله :

سندهب الليلة حتما إلى « مطعم فورقاتلى » ...
فقلت له وأنا أخلع طربوشى وأمسح وجهى :

ولم ؟

— لقد مررت به وأنا في طريقى إلى هنا فاستقبلنى صديقك
« الجتلان » وقرأت في قائمة الطعام التى يحملها في يده أن عشاء
اليوم يحوى لونا من « اللأزانيا » .

— « اللأزانيا » ؟ ... إنها لذينة ...

— لذينة جدا ...

— ٢٣٤ —

- ولكن...
— ماذا؟...
— ليس لي رغبةٌ في الذهاب...
— كيف؟... ألسنَ جاعاً؟...
— جائع... ولكنى... ولكنى أفضلُ أكلةً طريفةً من
الطعمية والفول...
— لقد سَقِمَ ذوقُك بلا ريب، أفضّلُ الطعمية والفولَ
على «اللازانيا»،...؟
— وماذا في ذلك؟
— أتذكر أنك كثيراً ما طلبت من «السيور فورقاتلي» هذا
اللون من الطعام؟...
— هذا صحيح... ولكنى لا أحس الليلة رغبة في تناوله...
وأصررت على رأيي فلم أراققه.

* * *

وقلَّ اختلاف في إلى «مطعم فورقاتلي»، فكان صديق «عزوز»،
يعجب من انصرافي عنه وزهدى فيه، ويسألتني في ذلك،
فأزعم له أن المطعم — منذ تحديده — قد فقد طابعه القديم،
وفقد مع هذا الطابع ميزته في جودة الطهو وإرضاء رؤّاده.
فكان «عزوز» يحتج على هذا ويستنكره...
وخرجت مرة من المطعم، وبينما كنت ماراً عن كُتَبٍ

— ٢٣٥ —

« بالجتلمان ، ، إذ عثرت قدمي وكدت أسقط سقطة لا تخلو
من خطر ، لولا أن أدركني « عزوز ، فاعتدلت في وقتي وأما
أصلح من شأني ، ووقع بصري على « الجتلمان ، وهو مائل في
وقفته الأرستقراطية المتحدقة ، فإذا هو منطلق الوجه في بشير
وأتصار ، وراعتني منه ابتسامة لم ألمحها على ثغره في هذا المظهر
الساخر قبل الآن ، وخيل إلي أن شفتيه تتحركان بغمغة :
« ما أشد غباوتك من رجل غفل ! »

وشملني اعتقاد راسخ بأن هذا « الجتلمان » كان سبب سقطتي ؛
أتكون قدمه البني في حذاءها اللامع الأنيق قد امتدت في طريقي
فأعترتني ؟ ... أو تكون تلك العصا المقوطة ذات المقبض
المفضض قد استطالت واعترضت قدمي ؟ ... ودنوت منه وقد
رفعت يدي لأهوى بها على خده المصغر ... ولكنني وجدتني
أنتزع قائمة الطعام من يده ، وأنهال عليها أمزقها شر
ممزق ... !

منذ ذلك الحادث لم تطأ قدمي « مطعم فورفاتي » ، وقابلت
« عزوز » يوماً لحمل إلي خبراً خطيراً ؛ ذلك أن « السنيور
فورفاتي » أفلس ؛ فلقد كان بمن يضاربون في السوق المالية
فأصابته نكبة فادحة ، فاضطر إلى أن يغلق مطعمه ، ورأيتني
أفاجئ صديقي بقولي :
« والجتلمان ، ؟ ... »

— ٢٣٦ —

— إن مصابي في المطعم أكبر من أن يجمعني أهتم بهذه
الدُميعة...

— ولكنك تعلم على الأقل ما حل بمتاع «السنينور فورفاتي»
— علمت أن كل ما يمتلكه في المطعم قد يسبح بالمزايدة...
ولم أطل معه الحديث في هذا الشأن، وفي اليوم التالي قصدتُ
إلى المكان الذي كان يشغله المطعم، وطفقتُ أسألُ البوابين
والجيران عن من اشترى «الجتلمان»، فلم أحظُ بجواب...
وتركتُ المكان، وأنا مَغْظُة...

* * *

وتوالت الأيام، وبينما كنتُ ماراً في حارة «جامع البنات»
«أمام حانوت» كوهين الوراق، إذ رأيتُ نفسي وجهاً لوجه
أمام «الجتلمان»، فبُهِتْتُ، وأحسستُ لحظةً حيرةً وارتباكاً
ولكن سرعان ما تزايد ذلك عني، وألقيتُ بنظرة متفحمة
عليه، فوجدته يحمل في يده اليسرى لوحاً من الورق المفوّى مثبتةً
فيه بطاقاتُ زيارة في أشكال مختلفة وخطوط شتى، وكان كعهدى
به يرتدى لبسوسَ السهرة، وعلى كتفه الشَّمْلَةُ الثمينة ملقاة
في إهمال مقصود، وما زال قابضاً بيده اليمنى على عصاه الثمينة ذات
المقبض المفضّض، كان هو هو ذلك «الجتلمان» الأرستقراطي،
عروس «الصالون» العصري... ولكن شيتاً واحداً لحظته لم
أعده فيه من قبل؛ شيتاً راعني وأشعرني بإحساس غريب؛

هو تلك النظرة التي يرون بها الناس . لقد تضاءلت لمعتها الوهاجة المنطوية على الزهو والصلف ، أما وجهه فقد شاع فيه الشحول والسقم واكتسى بطابع الالسى ، وخيل إلى وأنا أتفحصه أنه كان يُزيغُ بصره غنى ليتجنبَ مواجهتى ، وكأنه يتململُ في وقفته ضجرا . فابتسمتُ وقد انكسبتُ على بطاقاته أتفرج ، وأما أهمهم :

باللحظ العائر ... من « مطعم فورقاتلى » ، الفاخر فى شارع « عدلى » ، إلى ورّاق صغير فى حارة « جامع البنات » ... !
وداعبت بعصا عصاهُ ، فشعرت بها تهتزُّ فى يده على وشك أن تهطم . فركته وهضيت فى طريقى ... !

لا أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أكثر ترددى على حانوت « كوهين » ، الورّاق ، فأجعله مكانا مختارا أقضى فيه بعض الأصائل . لعله ذلك الجو القديم الذى يشمل حارة « جامع البنات » وملحقاتها ، حيث يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات الماضى المحببة ... أولعله شىء آخر لم أستبته ، وعلى أية حال لا أنكر أنه كانت تحلولى جلستى على المقعد الخشبى الخشن أمام الحانوت أرشف القهوة وأدخن على مهل ، أتحسس بين وقت وآخر حلقى الجديدة ، فخورا بجودة نسجها وأناقته تفصيلها ، وغير بعيد عنى صاحبنا « الجنتلمان » ، فى وقفته التى لا تتغير ، يحمل تلى هضضٍ وكره منه لوح البطاطات يعرضه على المارين ... !

— ٢٣٨ —

وكنّا في مستهلّ الصيف ، قهياً لى الرحيلُ إلى رأس البر ،
وأقمت فيه نحو شهر ، ولما عدتُ قصدتُ إلى دكان الورّاق ، فلم
أر صاحبي « الجنتلمان » في مكانه المألوف ، فسألت « كوهين »
عنه فأخبرني وهو لم يغادر مقعده أمام مكتبه ، وأتفه المقوس
الطويلُ يعبثُ في دفتر الحساب ، قائلاً :

لقد ضننا ذرعاً به ؛ طالما شكّا المارّة منه ، زاعمين أنه يشغل
حيّزاً كبيراً في الحارة ، فيعوقهم في الغدوّ والرواح ...

— وما ذا صنعتم به ؟

— بعناه .

— لمن ؟

— لشخص لا أعرفه ... رضى أن يدفع لى مبلغاً حسناً ثمّالة ...
فركت الحانوتَ على الأثر ، وأنا ضيق الصدر ، وقد تجلّت
أمامى صورة ذلك السيد الأرسقراطيّ الأنيق وهو واقف
في سوق الرقيقِ تتناقله الأيدي كتساع غمّك رخيص ، وقد ستر
وجهه بطرفٍ شملته ؛ ليخفي نفسه عن أعين الشامتين ...

وانقضت بضعة أشهر كدتُ أنسى فيها حوادث صاحبي
« الجنتلمان » ، وبينما كنتُ أمر بحارة « بين الصوريين » في
« الموسيقى » إذ شعرت أن يداً تأخذ بطرف سترى ، فالتفتُ
فلم أر إلا كومة من الملابس البالية موضوعة على شبه مشجب
أمام حانوتٍ من حوانيت بيع المتاع القديم ، فلم أعنّ بالأمر ،

واعترزتُ مواصلةَ سيرى ، غير أنه استرعى نظرى على حين
 بغتةَ هناةٍ تشبه اليدَ فى قفاز أبيضَ قدِ ظهرت من بين الملابس ،
 وتصورُ لى أنها كانت تضطربُ ؛ كأنها تستوقفى ، فمدتُ
 أدراجى وقلبى يدق ، ومضيتُ على الفور أرفعُ كومةَ الملابس
 عن المشجب ، فبان لى رُؤُوسُ صديقى ، الجتلان ، ... يا لله ...
 ما أشدَّ شحوبه ، وما أكثرَ تجاعيدَ وجهه ... ورايته كأنه
 يتنفس الصُّعداء ، ويحاولُ أن يرفع قامته المقوسة التى حناها
 وأذلها وقرُ تلك الملابس القديمة ... وقفتُ أتأمله فى حسرة
 وحيرة لا أجد من نفسى الشجاعة على الدنو منه ... لقد كان كل
 شيء فيه ينطق بالبؤس والفاقة ؛ شملةٌ ممزقة ، وكسوةٌ قدرةٌ
 طاشتُ فيها يدُ التخريب ... وعصاه الثمينة لم يبق منها غير مقبضها
 الفضى الحائل ، حرصَ على أن يبقية فى يده ذكرى لحياة
 العز والسودد ... و المتوكل ، لم أرَ له أثرا ... ولكن كل
 ذلك لم يعد شيئا مذكورا إذا قسناه بما دهم عينيه ... يا القدر
 القاسى ... لقد أصبحتا متقويتين ؛ فهل فقدت حاسة الإبصار ؟ ...
 وأخيرا وجدتُنى أدنو منه بخطا هينة ثم أطبقتُ يدي على يده
 وطفقت أهرؤها فى حنو وإخلاص ، فأحسست شفتيه تحتلجان
 بابتسامة مكشبة ، وكان جفنيه انطبعا ، وانحدرتُ منهما قطرتان
 لا معتان ...

وفى لحظة الفيتة ينهار أمامى . ويصبح كومة من الانقاض ...

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	١ - شفاه غليظة
٣٦	٢ - القبة الثانية
٦١	٣ - ملاريا الحب
٨٨	٤ - حكام من السماء
١٠٣	٥ - ولي الله
١٢٦	٦ - كلب أسعد بك
١٤٣	٧ - قبة الساق
١٥٧	٨ - أبو علي ، وزجاجة الكونياك
١٦٤	٩ - الطابور الخامس
١٧٢	١٠ - البسبيل
١٨٩	١١ - الزام رقم ٢
٢٠٦	١٢ - اليوم تنق
٢٢٠	١٣ - ليلة العرس
٢٢٥	١٤ - على الحباد
٢٣٠	١٥ - الجتلان

